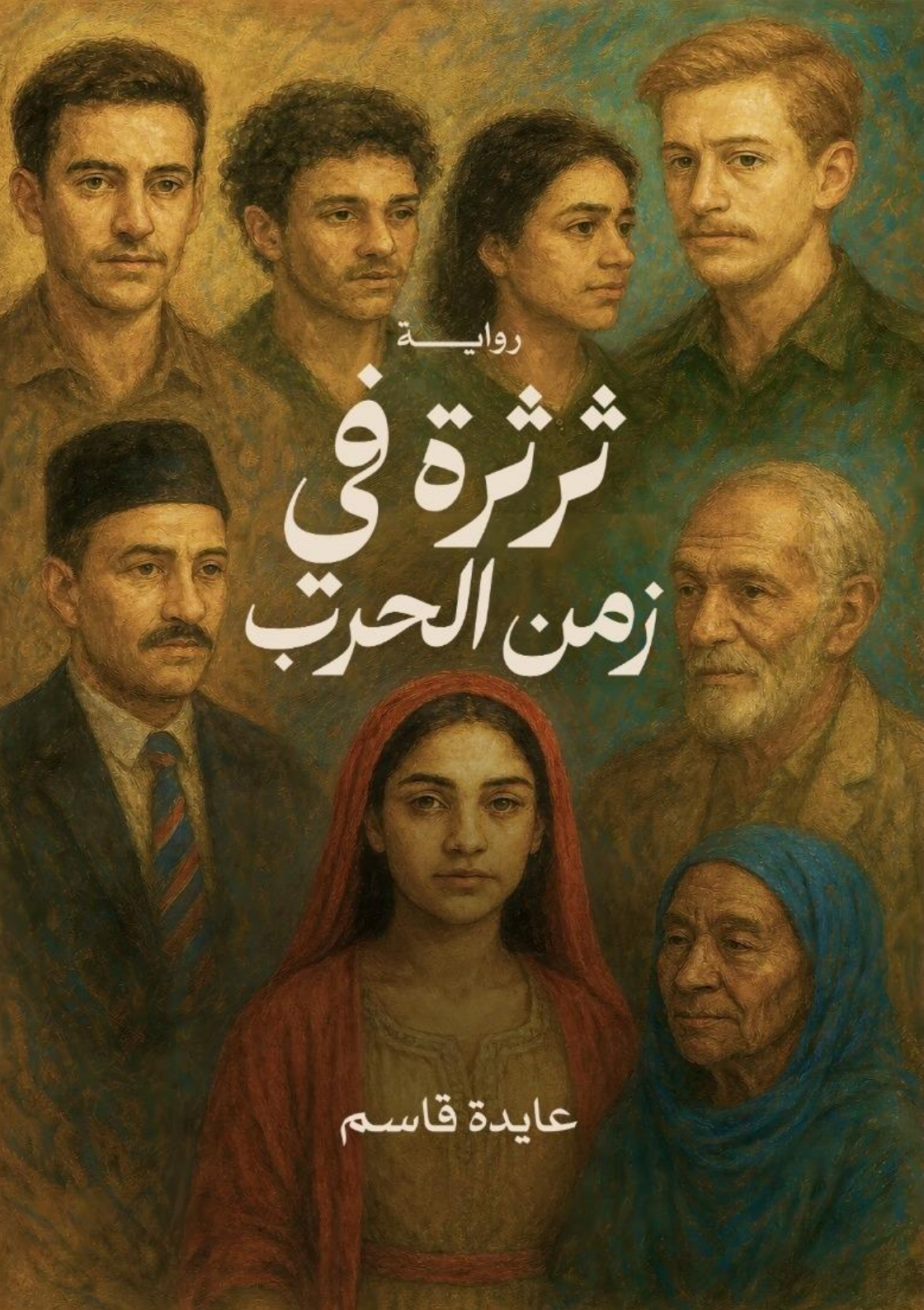
رواية
ثرثرة في
زمن الحرب
عايدة قاسم

ثرثرة في زمن الحرب

بيانات رواية ثرثرة في زمن الحرب:

- الرواية: ثرثرة في زمن الحرب
- الكاتبة: عايدة قاسم خليل
- النوع: رواية
- مراجعة وتدقيق النص وتصدير الغلاف: رياض الحَمّادي
- لوحة الغلاف بالذكاء الاصطناعي: رياض الحَمّادي
- تنفيذ الغلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- سنة الإصدار: ٢٠٢٦
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية، سبتمبر ٢٠٢٦
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٤٢٣ لسنة ٢٠٢٦.

فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزاوي)، الدورة الرابعة ٢٠٢٥، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب والكاتب وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، ما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلف لأخذ إذن خطي.

YKB
بنك اليمن والكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

HAZAWI
جائزة السرد اليمني

(روايـــة)

ثرثرة
في زمن الحرب

عايدة قاسم خليل

٢٠٢٦

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

١

لا شيء أرقبه من نافذة هذه الغرفة إلّا غمامات تغطي السماء؛ سماء باردة في دفء يغسله المطر.

نافذة (الطيّرمانة)؛ الغرفة التي كان يحتلها أبي وأصدقاؤه عصر كل يوم، يمضغون القات وينفثون دخان (المداعة)، التي لا زالت رائحتها ملتصقة بالجدران.

الساعة الآن الخامسة مساء ولا أحد هنا، وحدي في الغرفة، ساعة ذروة الكيف وارتفاع الأحلام لشعب وجد حياته في ورقة خضراء.

إن لم تكن مدمنًا على القات، فأشد ما يجذبك في هذه الحجرة المنعزلة في الأعلى هو ذلك التفرد العالي المشبع بالخرافية، وكأنك تنظر من قبة الكون. أنظر فأتخيل أساطير تجري في رؤوس الجبال القاتمة، أعد السحب المتناثرة، ويأخذني شعاع الشمس إلى أماني وشقاوات...

وبخلاف كل أيامي التي أطير فيها إلى الآفاق؛ غادرني اليوم الخيال. تنطلق عيناي راكضة ثم تعود حسيرة إلى الأسفل، تبحث عن شيء يلوِّن الفراغ الذي احتل عوالمي السحرية. أدقق في التفاصيل الصغيرة كمسجون لمائة عام لا يرى إلّا الهوام والحشرات، أدعك زجاج النافذة بيدي مزيلة ذرة غبار لن يراها إلاّ موسوس مثلي.

أرى ذبابة تحدق من الخارج، أرقبها بتقزز، وترقبني بقلق. كلانا يعلم ألّا تأثير له على الآخر محسوس؛ يدي الباطشة لن تصل إليها، وجراثيمها لن تصل إلى يدي. تسمع صوت دعكي المخيف، وأسمع صوت طنينها المزعج.

أظل في تحديقي أرسم تفاصيل جسدها الضئيل؛ أرى صفق أجنحتها، عروقها الممتدة، أطرافها الدقيقة، حركتها التي لا تتوقف، طيرانها اللولبي. دوامة من التحليل تبتلعني في دوامة من التقمص؛ أحسست بشعيراتها على جسدي، أخذت أتنفس بقلق وأنا أتخيل يدي طرفًا أسودًا هو يد الذبابة، وقدمي هو طرفها الآخر، شفتي هي تلك المقصات التي تخرج من فمها، أذناي قرون الاستشعار التي تتذبذب أعلى جمجمتها.

خرجت من كوابيسي على أصواتهم الصاخبة في الأسفل؛ يبدو أن التيار الكهربائي قد عاد، وأفراد عائلتي يحتشدون حول شاشة تلفاز تمر في أسفلها خطوط حمراء لأخبار عاجلة.

بت أكره تلك الشاشة، وأكره تلك الخطوط التي جعلت موتانا أرقامًا، وخلقت من اختلافنا قتالًا ومن تشاجرنا (ترندًا).

ها قد عاد جزءٌ من خيالي الحي مع اللون البرتقالي الذي صبغ السماء؛ أطير مع أسراب الطيور العائدة إلى وكناتها، أهدل مع الحمامات بحزن السنين، وأدور مع الكواكب في مداراتها، أتقد في وهج نجم خَجِل تذوب أضواؤه في العتمة كذوبان حبات السكر في فنجان شاي أسود!

تعجب أمي من أمثال هذا التشبيه الذي اخترعته في المطبخ. أصبحت في هذه الأيام الكئيبة أتفكه بهذه الصور، وأملأ بها رأسي حتى لا تنشغل بما يجري من أحداث، لكنني لا أفتأ أعود إلى نقطة الألم، وإلى وجع الرأس الذي يبدأ بالأخبار وينتهي بـــ ريان؛ ريان الذي لم يهرب من الأحداث ولم يدعها تمضي، بل أبى إلّا أن يكون حدثًا.

ريان أخي الأوسط، يكبرني بخمس سنوات، ذكي وجريء، لديه ميوله السياسية والفكرية، وهو خليط صعب الإقناع والتعايش، لم يتفق في ذلك مع أبي، منعدم الولاءات، ولا مع تقلب مزاج أمي المُتكدر.

وحدي من كنت هدفًا لأفكاره وغزواته؛ كان يحرص بجنون على جذبي إلى "مربعه"، أو أن يزيحني عن "مربعي". هكذا كان يتحدث وكأن الحياة رقعة شطرنج يديرها الأذكى ويسيرها الأقوى.

لا أدخل معه في جدال إلا وغلبني، أمي فقط من تستطيع إسكاته بصرخة لا تفاهم فيها، فيخرج غاضبًا ولا يعود إلا مع الفجر. أسمع اتصالاته المثيرة بأصدقائه وأناس آخرين كان ينعتهم بـ "الكبار"، يبدو في حديثه معهم مذعنًا مستسلمًا لا يملك من أمره شيئًا.

لا يخفت نشـــاطه الحركي الثوري إلا عندما يدخل مكتبته المكتظة بكتب السياسة والفكر. كان هذا ديدنه قبل خروج مظاهرات المتمردين إلى شوارع صنعاء التي غيّرت كل شيء، فلم أعد أراه إلا متقلقل البال، يذعره أي تحرك غريب في الجوار، يجلس معنا وعقله يشـتعل في مكان آخر ولا يعود إلينا إلا

كنائم أوقظ بزلزلة.

في ليلة فاصلة عاد والقلق يكسو وجهه، حائر يتلفت يمنة ويسرة بعد أن دخل في مشادة كلامية أوشكت أن تتحول إلى عراك مع جارنا أبو سجَّاد، الجار الذي احتل منزله الفخم الواسع قطعة الأرض الملاصقة لمنزلنا. منذ قدومه إلى الحي والمكان لا يخلو من السيارات القادمة من شمال الشمال، تنقل بشرًا وأشياء أخرى مريبة يفرغها ليلا في قبو منزله.

الصرخات التي تتعالى من سكان المنزل وضيوفهم العديدين تشي بانتماء ذلك الجار المهندم إلى المتمردين في الساحات.

في وقت متأخر من تلك الليلة أحسست بحركة غريبة قادمة من غرفة ريان، تقدمت من باب غرفته المضاءة، طرقته فلم يُفتح، عاد صوت الحركة الغريبة ينبعث من الداخل، طرقت بقوة ثم دفعت الباب ورأيت ما لم أكن أتوقع؛ ريان يشحذ بندقية أبي الوحيدة ثم يصوبها من النافذة حيث منزل الجار. عندما رآني أرسل إليّ نظرات حارقة مجنونة، لم أملك معها عقلي. صرخت مستغيثة فسقطت أمي كقنبلة في الغرفة، تبعها أبي الذي حجزه عن النافذة، ثم دفعه إلى الزاوية، كان ثائرًا يتكلم من بين أسنانه والعروق تنفر من رقبته المتشنجة المشدودة.

تتوسل إليه أمي أن يكف عن جنونه، يحاوره أبي حتى تمكن من انتزاع بندقيته، يهدأ وينكمش في ركن غرفته، يداري ثورة قلبه بالغرق في كتاب، والعبث بقلم، وكرمشة ورقة.

منذ توالي سقوط المحافظات في يد المتمردين أصبحت اتصالاته الكثيرة تبدو كحرب أخرى يخوضها مع «كباره». كان اتصاله الأخير بهم متفجرًا، كال لهم فيه الاتهامات والشتائم والتخوين. كنا جميعًا في الصالة نتناول طعام الغداء فلم نفهم من بين تهديداته الكثيرة إلّا أنه سيتصدى للمتمردين وحده إن دخلوا صنعاء وإن لم يتحرك أحد. يقول هذا مغلقًا الهاتف في وجه محدثه بعنف، لا كما كان يفعل من قبل، ثم مسح وجهه المجهد بكفيه فرأيت في عينيه انكسارًا وآهًا من قهر الرجال!

لم يعد منذ ثلاثة أيام إلى المنزل، اختفى من الحي مع أصدقائه، ولا علم لأحد أين ذهبوا.

في هذا الجو الجامد المتلفع بالمخاوف أتمنى أحيانًا أن أصبح مثل ريان، فرغم كل مساوئ ما يحمل فكره الناري، إلا أنه إنسان حر حي، يفعل إذا أراد، يسير المظاهرات، ويقلب الدول ويطيح بالزعماء، ويقف في وجه من يفعل ذلك، كما هو حاصل الآن.

أعجب من تناقضي؛ لكنني أحبه أيضًا، فهو يشبه خلط الطماطم مع التونة فينتج طعمًا مقززًا يجعلك ترميها في سلة النفايات. وهكذا أفكاري عن السياسة والحكم، أرميها في سلة المهملات في عقلي الباطن تحت أكوام من النكات والنحيب.

أمي بخلافي تمامًا؛ امرأة خمسينية مُتجعدة الجبين، ومجهدة دائمًا، تقف في منتصف الصالة حيث يجتمع ريان مع أصدقائه المتحمسين للقتال وتلقي

فيهم وعظًا سياسيًا من أيام "سالمين" حيث كانت الملابس بلون واحد. هكذا أتخيل تلك الأيام من الصور التي تجمعها أمي في صندوق حديدي أسفل سرير نومها الذي تخفي فيه الكثير من الأسرار والأحلام.

وعلى ذكر الأسرار، قبل أشهر اكتشفت سرًا كانت تخفيه أمي؛ لدي خالة هي زوجة أبي ومعها أبناء هم إخوتي من أبي. أحب التفصيل في التعبير عن العلاقات، وأكره ذلك في أمور الحرب والسياسة؛ بل أحب الإجمال هناك؛ فذاك شيء مؤلم أن تعدد المآسي، وممل أن تفصل الدوائر الانتخابية، وعدد الناخبين وما هو الحزب الذي حاز أعلى الأصوات.

تختلف أمي عني في هذا أيضًا؛ فهي لا تقول:"قُتل ثلاثة رجال"، بل تقول: "قُتِل محمد وسعيد وعلي"، وتنهرني عندما لا أفعل ذلك: "بنت! اهتمي قليلًا بمشاعر الآخرين!" أتفهم ذلك منها، وأكرهه مني، لكنني أهرب منه، لكن لماذا تحب أمي التفاصيل في السياسة؟!

❊ ❊ ❊

٢

مر أسبوع منذ اختفاء ريان ومعه غادر النوم جفون أمي الساهدة، تظل طوال اليوم أمام النافذة ترقب الشارع الذي ابتلعه في الظلمات وتنتظره كحلم ربما يعود.

لم تقلق عليه قبل ثلاث سنوات عندما كان ينزل إلى "ساحة التغيير" ويغيب هناك لأسابيع، لا يعود إلا عندما يحدث شيء سار أو خبر مفجع، يخبرنا به وهو يلهث من شدة الانفعال والتوتر. كانت أمي تستمع لملاحمه الثورية الملتهبة، ثم تبتسم بيأس وتخبره أن ما يفعلونه ليس ثورة، الثورة لا توقد إلا بالدم. حتى بعد أن سالت الدماء في جمعة الكرامة، ومع عودته أحيانًا بملابس حمراء قانية؛ جراء حمله لجريح أو قتيل، وكأنه يريها أنهم يستحقون اسم الثورة بجدارة. مع كل ذلك لم تتغير نظرتها لما يفعله ورفاقه، لم تخبره أنهم اخترعوا وسيلة جديدة لإسقاط الأنظمة المستبدة، ولا شدت على يده ليستمر في ثورته السلمية. لم تزل تكرر بيقين العارف: "لا ثورة بدون دم، ولا ثوار بدون سلاح!"

وفي توافق نادر، ينبغي أن يسجل ضمن غرائب العام، اتفق أبي مع أمي هذه المرة؛ جلس كثيراً إلى ريان وحدثه وهو مرتاح البال لا تزعجه فورة ابنه الشاب في الساحات والتي كان يراها لعب أطفال بالغين. كان يقول له بخبرة

من مارس السياسة وخبر ألاعيبها: "أنتم مجرد ورقة ضغط سياسي بيد من يفاوض الحاكم باسمكم، الثورة لا تكون بصدور عارية، لو كان الأمر كما ترون لخرج الإنجليز من عدن بتلك المظاهرات النقابية التي كانت تشعل عدن، لكنهم لم يخرجوا إلا بالسلاح."

لكن خروجه في هذه المرة كان يقلق أبي، فمنذ حذره جارنا أبو سجّاد من خطورة ما يفعله ريان في المنطقة الغربية؛ لم يذق طعمًا للراحة، هب يفتش عنه في كل مكان، حاول الاتصال به بكل الطرق، ذهب إلى المنطقة الغربية، أنهك من البحث في حارات منطقة "مذبح" وما جاورها من أزقة ودروب.

يعود من بحثه المضني مع غروب الشمس وكأنه قد تقدم في العمر سنين، يقعد على دكة بيتنا، ويخرج مسجله القديم، يدير عجلة الراديو فتتوقف يده مرغمة عند سماع ألحان المرشدي وعطروش. يهدأ قليلًا ويحرك يده مدندنًا خلف أبو بكر سالم برائعته: "من يشبهكِ من؟!"، يشرق وجهه بعد كدر سرعان ما تعود سحائبه الداكنة وتهطل تأنيبًا للضمير؛ كيف يمرح وهو لا يعرف أين ابنه؟! يُعيد إدارة عجلة الراديو بسرعة فيلتقط بروق الأخبار من سماء قاتمة لا تُبشر بخير.

كانت دائرة الإثم والتأنيب تتمدد في رأس أبي يومًا إثر يوم، تكبر في خيالاته الحزينة حتى أخذته إلى تخيل أحداث تضاعف الألم... ألم يكن سببًا لاختفاء ريان وهروبه؟! ألسنا عائلة متنمرة لم تقبل بآرائه وتساؤلاته الجريئة؟! تخرج تلك الهمسات بين نفثات مداعته وقرقرتها في آناء الليل،

ويفرغها أحيانًا في محادثة خفية عندما يبصره في أحلام يقظته، يعتذر منه، ويَهِمُ بتقبيل طيفه الذي يتلاشى أمام عاطفة الأبوة المكلومة والتي تنعي ريان وكأنها ترى مقتله.

لم تسقط أمي في براثن تلك الدوامة من الألم؛ أنقذها من ذلك إدراكها لعقلية ريان الثائرة، ذلك الجزء المجنون في شخصية أمي والذي لم يرثه أحد منها كريان.

تتصارع في داخلها تلك العاطفة الهائجة وعاطفة الخوف التي تلازم الأمهات على أبنائهن، فتتغلب الأولى وتقذف بها إلى الباب عند خروجه مع أصدقائه المقاتلين للتدرب والرصد. لا تتشبث به لمنعه أو تذرف دموعًا لثنيه، بل تحتضنه مودعة، تتشمم منه رائحة الموت قبل أن تخبره بأنها رائحة شهيد، هي نفسها رائحة أبيها قبل أن يُقتل في معارك التحرير ضد الإنجليز؛ جدي المغوار الذي أشعل فتيل المظاهرات ضد بريطانيا في القبائل والأرياف قبل أن تصل نيرانها إلى عدن. يضحك ريان وهو يرى الفارق بين ما كان وما هو حاصل، ثم يبتسم بحنو وهو يداعب ذوائبها ويهمس لها بكلمات البِّر والعطف فتضحك منها بشقاوة الأطفال وشغبهم، وما أن يغادر حتى تنهار باكية وتعود لشيخوختها وبؤسها الشاحب وكأنها ليست تلك التي كانت تحرضه بيقين على الخروج.

الشائعات في المدينة تعصف بكل شيء، وتنتشر في سماء حُبلى بالأحداث، تجمع أمي المُثير منها في جِراب حكاياتها وهي تطوف في الأسواق ثم تقصها

علينا لتنير لنا ليالي صنعاء الحالكة.

في فجر يوم أحد حزين وردتنا أنباء عن مقتلة عظيمة غرب المدينة بين تجمعات المتمردين وجيوب مقاومة؛ لدخولهم إلى صنعاء. القتال لم يكن يسيرًا؛ فالمقاومة شرسة، لكنها لم تكن كافية، خُذِلت مع أول طلقة حتى فنيت عن آخرها.

قُتِل ريان، وقُتِل معه عدد من أصدقائه المقربين، وسيطر المتمردون على صنعاء!

ننتظر وصول جثة ريان التي استلمها جارنا أبو سجّاد. تودد له أبي ليتوسط للجان الشعبية التابعة للمتمردين لتسليم الجثة. كان منظره وهو مسجى مهيبًا، تذهب الحياة أمامه في هبة ريح، ما الذي نملكه أمام الموت؟! ما الذي ينفعنا بعد تلك النومة البرزخية؟

لم يكن في جسده من تشوهات أو دماء، عدا يده التي انفجرت فيها عبوة ناسفة. خدوش طفيفة تملأ جسده وكأنها نجوم تسطع في ليلينا الكالح، تكتب قصة ملحمة بطولية خاضتها قلة صادقة أمام جحافل الموت والخذلان، تبرأ إلى الله من كثرة هانت بالجبن وطلب السلامة وإن سماها القوم بأسماء أخرى تستر سوءتهم إلى حين.

عندما رأته أمي خشيت من ردة فعلها غير المتوقعة، لكنها بكت في صمت وقور، ثم مسحت جبينه الدامي بيد مرتجفة ولسانها يلهج بالدعاء. تغتصب ابتسامة شامخة عندما ترى عيون الشامتين، تقبل وجنته وتتشمم رائحته

وكأنها تبحث عن دليل شـــهادته بين لفائف الأكفان، تلمع عيناها الحزينتان وتقول بفخر مكابر رغم مرارة الفقد: "هنيئًا لك ما فعلت! وويل للجبناء والخونة!"

مشـــى في جنازته بضـــع أفراد من العائلة والجيران، ودفن في مقبرة الحي، وصُلي عليه في مسجده. كان الإمام أحد أصدقائه، تعمد فتح مكبر الصوت عند الصلاة، وكأنه يعلن تضامنه معه، لكن ما نفع ذلك بعد أن رحل؟! كنت أســـمع تكبيرات الصـــلاة عليه وأنا أقف حيث كانت جثته ممددة قبل دقائق أمامي، أرقبه يرحل، وترحل معه ذكريات كثيرة؛ أحلام وآمال وأمنيات، ولا يبقى إلا الألم والحزن.

❊ ❊ ❊

٣

بعد مقتل ريان بات الخوف يطاردني كقاتل متسلسل. الخشية تظلل أمسي وغدي ويومي؛ أخشى من أشياء كثيرة، أشدها أن تنتقض عرى بيتنا الجميل بعد كل هذه الهزات، فالمشاجرات لا تكاد تهدأ بين أمي وأبي. بالأمس انفجر أبي في وجه أمي واتهمها بأنها سبب موت ريان. لم ترد في بادئ الأمر، دخلت غرفتها تجفف دمعها بكف مرتجفة. رأته قادم، توقف أمام الباب، طرقه ثم دفعه بقوة، رأت في عينيه ألمًا يتفجر، وفي وجهه بوادر معركة قادمة. بادرته بالقصف قبل أن يفعل، اتهمته بالجبن والعجز والخرف، لم تكن تجاريه في اتهامه الذي يستند على شبه وشكوك، بل كانت تكيل له التهم الجاهزة التي لا تستند لأي دليل، مجرد طلقات عشوائية غرضها التمويه والانسحاب الآمن. كانت تلك استراتيجية ناجحة لأم طالما تخطت حدود العجز بالغضب والانفعال وكما يقول المثل: "الهنجمة نصف القتال!"

لم تكن خشيتي متوقفة هناك، بل كانت تنسحب لما هو أعمق وأشمل؛ أخاف أن نصبح كدول أخرى نعيش في الخيام التي لا تقي من الحر ولا تدفع البرد، نقف في طوابير طويلة أمام نافذة مخبز المخيم حيث الذباب يرتص معنا، ويدفعنا بطنينه إلى الجنون حتى يدهس بعضنا بعضًا. أتخيل أشياء تحدث ولا تحدث، لكنها تحدث في عقلي، وأتمنى ألّا تحدث في مكان آخر.

أتدرون! أحضـر أبي خالتي وأبناءها إلى منزلنا لتعزية أمي. لا أدري بما فكر ليفعل ذلك، لكن دعوني أخمن؛ ربما أراد أن تنسـى أمي حزنها بتذكيرها بخيانته لها، أو ربما هو يحلم بأن أمي سـتكون هشـة وضـعيفة وتقبل ببقاء خالتي في منزلنا، وهو الأمر الذي فكر فيه أبي في الماضي فمحته أمي بزمجرة غاضبة.

خالتي بريئة بشكل محبب، وهي بخلاف صورتها التي ترسمها المسلسلات المصرية، أولادها الصغار يبدون كفراخ بط تسير خلف أمها في خط طويل.

لم نعتد وجود الأطفال في منزلنا؛ فكان لوجودهم تأثير وجود المخلوقات الفضـائية في صـحراء العرب، فنحن نندهش من أفعالهم، ونضـحك من تعبيراتهم غير الناضجة، ونغضب من صراخهم المتواصل.

أخرجنا ذلك الوجود من جو الكآبة الذي فرضـه موت ريان. أعلم أنكم تعدون من يبتسـم في موت قريبه خائنًا؛ بل إن بعض النسـاء تتأزر بلباس الحزن لسـنين عديدة بدعوى الوفاء للميت، فتجدها في الأفراح ترتدي ملابس سوداء، لكنها فاخرة، وتمتنع عن وضع مساحيق التجميل، لكنها لا تمتنع عن شراء المثلجات اللذيذة وأكل الحلويات باهظة الثمن!

لا أحب هذا النوع من الحزن غير المفهوم، لا أقول ماذا يسـتفيد الميت من كل هذا، فلا أحبذ هذه النظرة الرأسـمالية النفعية لمشـاعر الناس ولمظاهر فرحهم وحزنهم، بل أحب الاشـتراكية التي تجعل حزن الواحد هو حزن الجميع.

ذكرتني الاشـــتراكية بذكرى قديمة عندما كانت أمي تتمتع بشـــبابها الحاد المزاجي المؤدلج. يومها توقفنا بالســـيارة أمام نقطة تفتيش على الطريق المؤدي إلى خارج العاصمة صنعاء، نظر الجندي في بطاقة أبي ثم ابتسم:

- مِن عدن! لماذا أنتم هنا؟!

تكلم أبي برســـمية وهدوء، فهز الجندي رأســـه بتفهم قبل أن تقصـــفه أمي بكلماتها:

- اسأل أسيادك لماذا هم في عدن يسبحون في بحارها التي نهبوها من شـــعب الجنوب قبل أن تأتي لتســـألنا لماذا نحن هنا نطور مؤسساتكم البالية التي لا تملك كوادر مؤهلة.

كانت تلك الحادثة في زمن حرج، إبان خروج مظاهرات الضباط المتقاعدين في عدن، فكان أي احتكاك هنا ولو غير مقصود يؤدي إلى انفجار عنيف.

يااااه! لماذا عدت إلى السياسة التي أبغضها، وإلى أين؟! إلى الاشتراكية!! كل ذلك بســـبب أمي التي ولّدت في ابنتها الأخيرة نفورًا حقيقيًا من تلك المســـتنقعات، وكأنني النقيض لما تفعله الرفيقة أمي خريجة مدارس البدو الرحل التي أنشأها سالمين.

فبينما أمي تشـــاهد الأخبار وتتردد عيناها في الخطوط الحمراء، تنتقل بين أكثر من محطة وتســـتمع إلى عشـــرات المحللين الذين يحللون لماذا عبرت القطة الشـــارع بســـرعة؟! أعكف أنا في المطبخ على اختراع أكلة جديدة. هنا الحياة حيث تملأ بطون الناس بحرفية وتفنن خير من ملء عقولهم بترهاتك

ومشاهداتك وأحلامك التي لا تناسب أحدًا سواك.

لم أعد وحدي بعد الآن؛ فخالتي تشـــاركني هذه الميول، نقضـــي أوقاتنا الفائضـــة في المطبخ أو في الحديث عن آخر الطبخات وأجود أنواع الدقيق لصنع ألذ (كعك) للعيد الذي اقترب.

العيد! تردد أمي مع كل عيد: "عيد بأي حال عدت يا عيد!" ولا تكمل الشطر الثاني من البيت؛ فهي تعتقد أن كل شؤم وبلية إنما أتى مع كل جديد. الماضي بالنسبة لها حلم وردي مر في سرعة الضوء ولم يعد، بقي هناك لا يخضع للنقد وغير قابل للنقاش.

لكن هذا العيد لن يكون ســعيدًا من دون ريان، ســيمر بطيئًا مملؤًا بالنحيب والبكاء والتذكر، ولن نصــنع (الكعك) أيضًـــا، لأنه لم يعد لدينا دقيق، وأســطوانة الغاز الوحيدة على وشــك النفاد، والأســواق خالية ومحطات الوقود تقف أمامها طوابير طويلة في انتظار أن تُفتح.

هكذا قبل كل عيد، أو إثر أي أزمة، أو قبل رفع الأسعار؛ تنطفئ الكهرباء، يغيض الماء، ويختفي الغاز من المحطات، ويتسرب إلى السوق السوداء. تمتعنا سنة، بعد الثورة، برفاهية الكهرباء التي لا تنطفئ، بالأسعار التي لا ترتفع، وبطوابير الغاز التي لا تُرى، سنة واحدة فقط ثم بدأت ألسنة الحرب ترتفع.

الدخول على العيد بأجواء الجنائز سمت جديد أتى به هذا العيد؛ "بما مضى أم جرى فيك تجديد!"

❊ ❊ ❊

٤

مشـــغولة كثيرًا اليوم، لو كنتم معي لرأيتم ذلك، أكاد أنهار من التعب مع آخر أمتعة أحزمها.

نسيت أن أخبركم أننا سنرحل إلى الجنوب، أشياء كثيرة جعلتنا نقرر ذلك، ليس أولها مقتل ريان ولا آخرها أننا من عدن.

يتوقع أبي بشكل يشبه الوسوسة أن المتمردين لن يتركونا وشأننا. في الليل يدور حول المنزل بمصباحه الكهربائي، يتحسس الزمن الذي يمشي بطيئًا من عليته وهو يرقب طلوع الفجر، يفتش بين الجيران عمن يراقبه، ولا يخرج إلى أي مكان خشية اعتقاله في أي نقطة أمنية.

تدخل امرأة غريبة المنزل فتستقبلها خالتي بوجه باش، وتدور بها في غرفه. إنها المالكة الجديدة للبيت، باع أبي البيت البارحة، وهي ليلة لا تنسى حين رأيت دموع والدي وهو يستند على جدران بيت لم يعد يملكه حتى وإن ظل يدندن بإكبار جريح: "عدن! عدن! يا ريت عدن مسير يوم!"

لا تسألوني عن أمي كيف هي الآن، تظل تفتح صندوق أسرارها العتيق ثم تتنهد وتعيد إغلاقه، وتعود لتدور في المنزل، تحدق بالأبواب والنوافذ، تتلمس الدرج، وتنفض لا شيء عن الجدران التي كتبت ذكريات أربع وعشرين سنة، تعود لتنزوي في ركن غرفتها وأمام صندوق أسرارها تبقى

واجمة وقد غابت في البعيد.

أصبح المنزل هو صندوق أسرارها الجديد، حزنها المتمثل في وجودها هنا بين ركام الذكريات التي كانت قبل أيام حية، كأنها انتقلت من ماضٍ مثالي إلى مستقبل قاتم، أما الواقع فلم يكن سوى خربشة في ورقة ممزقة نطويها غدًا ونتركها خلفنا إلى الأبد.

نجمع حطام كراكيبنا ونحشرها في سيارتنا رباعية الدفع، نتكور فوقها، وكل في مخاوفه غارق، ولا أمل يسطع في عتمة تبدأ من صنعاء وتلف ما خلفها في اللون الرمادي، وبين المطر والغيم لن ترى الشمس!

قبل أن نصعد قمة "نقيل يسلح" قيل لنا إن الطريق السالكة التي كانت تُقطع إلى عدن في ست ساعات أغلقت، ولا طريق الآن إلا من "يافع"، وهي طريق وَعِرة لا تُقطع إلّا في ضغف هذه المدة.

من المضحك أننا لم نُبقِ شيئًا وراءنا، حتى الدجاجات الثلاث لم نرضَ أن تبقى هنا، حملناها ووضعناها في "كرتون بسكويت أبو ولد"، وطوال الطريق كنا نسمعها تخربش، أما "أم العيال" فلم تبقها أمي هناك، بل وضعتها مع كتاكيتها الصغار حرة طليقة ترتع حيث تحب فوق متاعنا، كانت الدجاجة من فصيلة تُسمّى محليًا "الكُبري" أحضرت من الكويت، لها أرجل طويلة، وجثة ضخمة، وصوت ناشز، من يشاهدها لأول مرة يحسبها طائرًا جارحًا، لذلك عندما وصلنا إلى نقطة التفتيش ظل الجندي ينظر إليها باندهاش وهي تربض كالصقور فوق أيكة متاعنا المسكين.

جلبت لنا هذه الدجاجة- فضـلًا عن فضـلاتها التي لطّخت بها السـيارة والأمتعة- بعض الفكاهة الصاخبة. عندما فتح الجندي باب السيارة الخلفي ليفتش أمتعتنا المتكدسـة، خرجت الدجاجة مع صـغارها تلعب وتلهو في النقطة التي انقلبت رأسًا على عقب بِعدْو جميع الجنود خلف الطائر الغريب مع كتاكيته الجميلة. كنا نشـاهدهم- نحن النسـاء- من داخل السـيارة ونضـحك بتشـفي وهم يتراكضـون مع أسـلحتهم خلف دجاجتنا البطلة التي أخذت حقنا كاملًا؛ فلم يكن معروفًا ولا لائقًا أن تُفتش السـيارات التي تحمل نساء في داخلها. كنا كـ "الجواز الدبلوماسي" نعبر مع مرافقينا من أي نقطة من دون أن يحدق الجندي في السـيارة طويلًا ولا أن يطلب حتى فتح النوافذ.

لا أدري صـواب هذا التقليد الذي أصـبح كالإجراء القانوني، من يتجاوزه يُعاقب من قبل المجتمع بالسـب واللعن والدعوات المُتسـاقِطة، لكنني مغرمة به، يُشعرني أنني ملكة تضفي الأمان على تابعيها من الرجال.

في الطريق مررنا على المزارع وسرنا فوق الجسور، الخضرة الممتدة تكسو أجزاء من طريق ذمار كبسـاط لامع يعكس ضـوء شـمس الظهيرة المتزينة بالغمام، الهواء البارد يهب هبوبًا مُتدرجًا يداعب السـنابل الذهبية التي تتراقص على أنغامه الساحرة، لكن ما لا تنساه أبدًا هي الجبال الشاهقة التي لا تصـعد السـيارة أحدها حتى يتلقفها آخر وكأنها كرة بيسـبول تضـربها التضـاريس القاسـية بمضـاربها الحديدية في طرق ثعبانية، النظر إليها في

الخريطة يثير الرعب وكأنها خريطة سحرية يسكنها الغيلان. تبقى السيارة تهتز وهي تلف وتدور في منعطفاته الخطرة المخيفة، نصعد ونأخذ نفسًا عميقًا، ونصعد ونأخذ آخر ونصعد فترن آذاننا ثم تصمت وكأننا في فقاعة صابون تتدحرج في أعلى الجبل، ننظر من خلالها إلى مشهد منعدم الصوت حيث الجبال الجرداء والصخور الصماء، تدور معدة أخي سعيد بقوة ولا نهبط المنحدر إلا وأنفاسنا تختنق وأنوفنا لم تعد تطيق هواء السيارة المحتقن بالروائح الكريهة.

وصلنا الآن إلى طريق "يافع"، الممر البديل عن طريق "الضالع" الذي أغلق، طريق ترابي تملأه الحفر، تقف السيارة مع أمتعتها وكأنها جمل بهودجه تهزه الريح وتقلبه العاصفة.

بقدر ما أزعجنا الطريق، بقدر ما أذهلنا ما على جانبيه من حدائق غناء، وبيوت حصينة أبدعتها أيادي فنان حاكها بتمهل على صخور سوداء، تخترق تلك الحصون مدرجات زراعية منثور فيها أشجار خضراء مثمرة، رتبت بعناية وكأنها مدينة سكنية في أحد الأحياء الراقية في مدينة حديثة.

ومع غروب الشمس وصلنا إلى "الحبيلين" حيث لم يعد بيننا وبين عدن إلا القليل؛ لكنه الليل والليل لا يسيره في اليمن إلا المغامرون وأبي لم يكن منهم.

مكثنا في فندق مهلهل، أزعجنا صوت "مولده الكهربائي" ولم نسلم من

قرص "البعوض" ودندنته المزعجة طوال الليل، ومما أزعجنا أيضًـــا أنباء تتحدث عن نية المتمردين اقتحام عدن، ربما تكون شـــائعات، وربما تكون حقيقة، وأتمنى أن تكون لا شيء.

❊ ❊ ❊

٥

مع نسائم الفجر الأرجوانية استقبلتنا عدن؛ بأجوائها الحارة الملتهبة، وناسها الطيبين، وغربانها المزعجة ونوارسها الجميلة، وذلك المد الأزرق الذي يحيط بها كدرة تسبح في الفضاء.

هنا البحر؛ الغموض، والاتساع، والغرق!

عبرنا الطريق البحري حيث يحتضن البحر السيارة فتضربها الأمواج من الجانبين، تحتك صخور الشاطئ تلمع، وفي البعيد ترى حقول الملح البيضاء.

قارب في الأفق، قدم في الشاطئ، كرة في الجو، ورذاذ البحر يغسل المشهد بلون السماء، هذه صورة ساحل "جولد مور" حيث توقفنا قبل أن نواصل الطريق إلى منزل جدي "أسعد" في قلب التواهي.

- ستيمر بوينت!

نطقها أبي بلكنة بريطانية خالصة وشرد قليلًا مع ذكرياته عن تلك الأيام التي سمع عنها ثم ردد:

- عندما كانت عدن جنة الأرض!

يحب أبي بريطانيا، يدافع عن احتلالها للجنوب، يعلل هذا بتعاليل كثيرة منها أننا أشد بؤسًا اليوم من زمن الاحتلال.

لرأيه هذا جذور سـقتها كروزومات والدته البريطانية التي أدت إلى اختلافه الحاد مع جدي. كان جدي ثوريًا رغم أنه ابن السـلطان الذي عزله عن الحكم ونفاه إلى مصر إرضاءً للإنجليز.

ظل الجد الثائر هناك في كنف ثورة ٢٣ يوليو المصـرية يتشـرب الأهداف السـامية والنبيلة للتحرير حتى تَفجرت ثورة ١٤ أكتوبر، لكنه لم يعد إلى الجنوب، بل آل به الأمر للاسـتقرار في إثيوبيا وهناك تزوج بجدتي نعمى بعد أن تركته جدتي البريطانية لأسباب سياسية.

عندما كبر أبي سـافر إلى لندن للدراسـة، وسـكن مع عائلة أمه، وكانت له سـفراته القليلة إلى موسكو، وهناك التقى أمي "الضـابط في جيش جمهورية اليمن الديمقراطية الشـعبية". أرسـلت في بعثة دراسـية لاسـتكمال شـهادة الماجسـتير، أعجب بجمالها، وراقها شـكله ونبل عائلته فتزوجا مطلع الثمانينات، وكانا يتنقلان بعدها بين بريطانيا وروسيا واليمن، واستقر الحال بهما بعد الوحدة في صنعاء.

تجهم وجه أمي لكنها بقيت سـاكنة؛ فلم يعد للحديث عن أي شـيء في الماضـي معنى وليس لتلك الشـجارات المتتالية التي تندلع بين أمي الثورية وأبي ابن السلطنة من سبب؛ ولت السلطنة وانطفأت الثورة.

في عائلتنا البرجوازية الثورية تجتمع المتناقضات؛ فبعكس عشوائية أمي كان أبي يحب النظام. ظهر هذا في أدق تفاصيل شؤوننا العائلية؛ فعدد الأسرة لم يكن مطابقًا لأريحية أمي التي أحبت أن تنجب جيشًا من الثوار يملأ السـهل

والوادي، ويزأر في كل شـــارع وتجده تحت كل جســـر، لم تمضِ رغبة أمي كما أرادت، مع أنها الأعلى صوتًا، والأشد سطوة فيما يظهر؛ لكن أبي قالها كلمة واحدة: "خمسة! فكنا خمسة."

وعن الدراسة وأحوالها كان أبي معياريًا:

- نيرمين صحفية، ريان مهندسًا، رانيا معلمة، سعيد طبيبًا.

وأضحى كل منهم كما رُسِمَ له إلا أنا؛ نظر في وجهي طويلًا وكأنه يستقرئ ما سأكونه، ثم ابتسم ضاحكًا:

- عجزتُ عن معرفة ما ستكونينه.

وهكذا بقيت وحدي أبحث عن "رغباتي وميولي" التي صرخت بها أمي يومًا في وجه أبي

- طاهية!

ابتسم أبي عندما أخبرته بذلك، أما أمي فقد تجعد جبينها وقالت بقرف:

- لماذا لم تحملي بعض جينات الثورة التي ورثتك إيَّاها وتكونين مثلي ثورية؟!

- وما وظيفة الثوري؟!

- الثوري لا وظيفة له!

تدخل أبي ساخرًا:

- وظيفته قلب كل شيء.

من بعيد رأينا قصرًا من طبقات عدة يستند إلى جبل أسمر تتخلله الصخور

وتفترشه الحصى، بين كل طبقة من طبقات القصر الأبيض الجميل حزام باللون الأزرق الداكن المزخرف برسوم لأشجار ونباتات، له نوافذ ذات أطر مزخرفة، فيما القمريات ذات اللون الواحد تميز إطلالته الجميلة بين بيوت قديمة بناها الإنجليز إبان احتلالهم لعدن.

بمجرد نزولنا من السيارة توافد المستقبلون معروفين وغير معروفين على أبي "حفيد السلطان"؛ لا زال للاسم صداه رغم تقادم الزمن.

وفي الممر الخاص بالنساء ظهرت ببشرتها البرونزية، وابتسامتها الواسعة بأسنانها البيضاء النضيدة، وقامتها المديدة، مشت بتمهل ووقفت أمام الباب وهي تتلفع بشالها الأبيض وكأنه غمامة ملتفة حول قمة جبل.

الجدة (نُعمى) الإثيوبية، تزوجها جدي بعد زوجته البريطانية التي تركته بعد الاستقلال، أنجبت له عبد الرحمن، أصغر أعمامي سنًا، وعمتي لينا، التي تزوجت بابن خالتها وغادرت معه إلى إثيوبيا.

كان البيت الواسع يعج بحركة أبناء عمي "عبد الرحمن" وزوجته "سمية"، فهو آخر من بقي من أعمامي في القصر. وجوه سمراء وبيضاء وبين بين تستقبلنا في الردهة الداخلية. ندخل إلى شقة فرغت لنا، أصلح فيها شأننا ورتبت أمتعتنا في دولاب يتوسط الغرف في الصالة المتصلة بالمدخل.

بحلول وقت الغداء دُعينا إلى صالة القصر الفخمة التي دُعِيَ إليها أبناء العائلة؛ الأعمام والعمات وأبناؤهم. كانت الوجوه القديمة التي رأيتها قبل سنين عديدة تأتلف اليوم، هناك من شَبّ، وآخرون لا زالوا أطفالًا، تغير

الكثير خَلْقًا وخُلُقا وبقي الأقل، وهكذا الدنيا في دوران مستمر، تُجدِّد وتتجدد.

لم يكن يفصلنا عن موائد الرجال في الناحية الأخرى إلا فاصل قصير تتدلى عليه ستائر تتمايل يسرة ويمنة، نسمع أصواتهم، ونرى قاماتهم المديدة، تتهامس بنات العم عن فلان المتزوج بفلانة، وعلان الذي فسخ خطبته، وفلان الذي يبحث عن زوجة ثانية، يهمسن بضحكات متواطئة، وكلمات مشفرة عن نقطة لا تُطرق إلا وتغلق بضربة من عصا جدتي نعمى في الأرض معلنة مد الموائد وتقديم المقبلات؛ مراسيم الوليمة التي كانت على شرفنا.

بعد الانتهاء وبدء جلسة الشاي تقدمت نحوي، وضعت فنجان الشاي أمامها، تحدثت عن كل الأشياء وعن لا شيء، بقيتُ منصتة أنتظر انتهاءها لكنها لا تفعل إلا وتبدأ من جديد.

– ما رأيك في ابن عمك عماد؟

مر الاسم سريعًا في مخيلتي كطيف:

– ابن عمي كمال؟

قالت مؤنبة:

– نعم، ما أسرع ما نسيته!

لا أتذكر إلا فتى بدينا بكّاءً، يعتزل اللعب كلما هُزِم أو اعتدى عليه صبيان الحي المجاور حتى تأتي أخته الكبرى تنزعه من بين أيديهم ثم تجره وراءها إلى المنزل.

- ها هو ذا!

أشارت إلى شاب مفتول العضلات ممتد كشجرة تضرب رأسها في السقف.

تدخلت أمي:

- تقصدين الضابط عماد؟

هزت المرأة رأسها وابتسامة تعلو شفتيها الورديتين.

- وأنا أخته الكبرى سعاد.

حاولت أن أتذكر كيف كانت عندما جرته خلفها، لا شيء إلا يدًا كبيرة وجسدًا بضًا ومشية سريعة من دون ملامح واضحة إلا رسم كالخيال.

- تفكرين؟

لم أفكر في الزواج بهذه الطريقة من قبل، كنت أحلم أحلامًا وردية عن فارس يأتي على حصان، أدعم كل هذا بروايات رومانسية أحشو بها رأسي لمجرد التسلية والبقاء في الفراش لأطول مدة ممكنة في أحلام يقظة ساذجة؛ لكن أن يتقدم شخص حقيقي من لحم ودم ويطمس أولئك الفرسان الورقيين فهذا ما لم أجربه لا في حقيقة ولا خيال.

- ستفكر.

قالت أمي التي رأيت في وجهها القلق ذاته الذي ساورها قبل زواج أخواتي كلهن، تخشى من تكرار تجربتها المرة واستنساخها في حيوات بناتها كتناسخ الأرواح، اللعنة التي لاحقتها قبل زواجها بأبي، "الطلاق" تلك الكارثة التي تفت في عضد المجتمع وتترك أولادًا لا ملجأ لهم وأمًا محطمة يندر أن تقف

مرة أخرى إلا بحبل من الصبر والقوة متين.

رأيت ظله يتقدم من الستائر، حسبتها تحركت ورأيت عينين دعجاوين تنظران من بين الستور المُرخاة.

❊ ❊ ❊

٦

لا جديد حتى الآن، الأخبار في التلفاز لا تقول إلا باستمرار تهديد المتمردين لعدن بعد أن استولوا على صنعاء وذمار وإب وتعز.

ولا زلنا في منزل جدي. أحب هذا المنزل، وأكتشف كل يوم شيئًا جديدًا يخفيه عني. بالأمس أخذتني ابنة عمي سارة إلى المطبخ، وأرتني الأدوات التي تستخدمها الطاهية التي تحضر في المناسبات العديدة: الطناجر، قوالب المعجنات، الغلايات الضخمة، الفرن الحطب، الفرن الكهربائي، الفرن الغاز.

وبين الحشائش في المرج الأخضر في فناء الدار الواسع قضت سارة "العصرية" في تعليمي "التريكو" والضفيرة الفرنسية وتشقير الحواجب.

هي مثلي تهوى الطبخ؛ لكنها تحب أن تتخصص في التجميل وتصفيف الشعر.

أحيانًا أشعر بالأمان يستغرقني حتى أنسى الخطر وأستبعد الحرب، أغرق في تفاصيل الحياة التي تأخذني إلى مناطق مجهولة لم ألجها من قبل.

في المساء وفي المرج نفسه على أضواء المصابيح الغازية أمسية شعرية تديرها ليلى ويلقيها أحمد.

ليلى وأحمد توأمان في العاشرة من العمر كأنهما الشوكولاتة والكريمة. أراني

أحمد أول أبيات مقفاة له على بحر الرجز؛ أسهل البحور الشعرية.

- عمي، الشـــاعر إلياس، قال إنه ليس من البحور، بل هو لنظم المنظومات لا لتقفية المشاعر.

- هل تُحسن غيره؟

- أتدرب على الوافر، وأتوق إلى البسيط.

تثاءبت ليلى وهمهمت:

- وقت النوم.

ذهبا وتركاني وحيدة أتطلع إلى النجوم التي تتراقص في لجة السماء المخيفة. تتمايل الحشائش والأوراق وترسل صوتها في موجة إثر موجة. تهزني الريح طالبة مني الدخول، فألمح من بين الأضـــواء طيف ظله الممتد وعينيه اللامعتين. أتساءل في سري متعجبة:

"أين ذهب الفتى السمين؟!"

أعود إلى السماء أستشيرها في أمري، فيلمع نجم ويخفت آخر، تولد غيمة، وتركض أخرى، أرتفع عن الأرض وأطير كذبابة، تتدافعني أعاصـير الريح وتحطم أجنحتي الصغيرة على انكسارات الموج الهادر، أُقذَفُ إلى المكان الخطأ، حيث تدهســني الخيول بحذواتها، وتبقى عيناي في الوحل أقلبها بألم، ثم تدفعني إلى الإغضاء، وأتذكر الحرب فأتوه عن العالم إلى لا شيء. على صوت شجي أصحو في السحر. أتسلل بين الأبواب المقفلة والممرات المظلمة باحثة عن ذلك النغم الحزين للآيات المتلوة، وأجده يتدفق من

الغرفة الوحيدة في الأعلى حيث تبيت الجدة نعمى.

يفتح الباب متمهلًا، وتطلّ برأسها الأشيب وعينيها الخابيتين:

- تعرفين! كنت أنتظركِ.

أجلستني على مرتبة مرتفعة عن أرض الغرفة الجرداء التي تقعد عليها:

- هنا كان جدكِ يعتكف أيامًا طويلة.

دحرجت حبات المسبحة اللؤلؤية وهمستْ:

- تعرفين! أنا اليوم أفعل ذلك؛ لكن مشـاغل الدنيا تخرجني من هنا ولا يطيب لها أن تتركني أرمم روحي.

قلبتُ مصحفًا، وضع على كرسي، تبدو صفحاته الصفراء مهترئة.

- مصحف جدك.

دققت في أوراقه، كانت له حواش فائضـة لم أرها في مصـحف آخر، وكأنها نسخة وحيدة صنعت لجدي التي ملأها بالخواطر والتأملات.

- وهذا مصحفي.

كان شـبيهًا بمصـحف جدي بحواشـيه الكبيرة، لا يختلف عنه إلّا في عدد الصفحات التي ملئت حواشيها.

سرى الصمت في المكان الدافئ باردًا كالجليد:

- تعرفين! لِمَ كنتُ أنتظركِ؟

- لا!

- تعرفين! أكثر أبناء جدك شـبهًا به هو أبوك الذي يقدس النظام

ويهوى ترتيب حياة أبنائه.

ثم صمتت:

- تعرفين! وجدك فعل الشيء نفسه مع أحفاده.

لم أفهم ماذا تقصد بترتيبنا. حدقتُ في عينيها طويلًا لأستشف شيئًا من صمتها المُتكرر، وأدركتني كلماتها النافذة وأنا على وشك الإبحار في لجة الشك:

- لم يستطع التحكم في علاقات أبنائه الاجتماعية لانشغاله ومرضه، ولم يدرك ما كان يرجوه منهم، أما أنتم فقد صمم تنظيمًا لزيجاتكم وأرفقه في وصيته.

أخرجتْ مظروفًا سماويًا من لفافة تعبق مِسكًا وناولتني:

- تجدين فيها أسماء أحفاده، وكلًا أمام اسمه زوجه أو زوجته المستقبلية.

فضضت ورقة مُتقادمة من ذلك المظروف وقرأت الأسماء التي بلغت الثلاثين اسمًا، كان لافتًا أن يكون جميع من أعرفهم تزوجوا ممن حددهم جدي:

- هناك أسماء غير موجودة، ومنها اسمي؟!

ابتسمت:

- تعرفين! أنت ولدتِ بعد وفاته.

تنهدتُ بفرح وقد حسبت أني نجوت من تدخل النظام في حياتي مرة أخرى

بعد أن نجوت من ذلك عندما حدد أبي مستقبل أبنائه.

– لكنه ترك ذلك لي!

ابتسمتْ لعينيَّ الهَلِعتين، وقالتْ مُبرِّرةً:

– ما فعلناه ونفعله معكم ليس تسلطًا بل تأمينًا لحياة تليق بكم، لا يكثر فيها السقوط الذي لا نعرف أتقفون منه من جديد أم لا.

قامت إلى الجدار المزخرف أمامها. كان هناك نتوء درج في الحائط، سحبته وأخرجت منه مظروفًا ورديًا:

– هذا ترتيب الأحفاد الاثني عشر الذين ولدوا بعد موت جدك.

كنتُ في الخانة الثالثة، وكان أمامي اسم عماد.

تنحنحتْ:

– أتتك أخته قبل يومين لعرض الأمر عليك، لكنك لم تجيبي بأي شيء، وربما لم تفكري في الأمر.

انتظرت لترى بماذا أجيب، أفكرتُ أم لم أفكر، لكنني فكرتُ ولم أفكر، مجرد التفكير لا يُعطيك فكرة، بل أحيانًا يزيدك ضياعًا وحيرة.

– تعرفين! أعرف شعور التخبط الذي تشعرين به، فعماد مجهول لك، لا تعرفينه إلّا بصلة القرابة التي تباعدت عندما ذهب أبوك إلى صنعاء؛ يجبر ذلك بتاريخ العائلة التي لا يشذ عن سمتها في التربية والتعليم إلّا أفراد قلائل لا يمثلون صورتها المشرقة؛ أنتم أحفاد السلطان، تعلمتم في أقوى المدارس، ربيتم على

أيدي أفضــل المربين والمدرســين. فمن يكافئك إلا رجل من التربية نفسها وفي مستوى تعليمك!

كانت تسرد عليّ فضائل العائلة السلطانية، ولا تذكر مساوئها الغفيرة، ليس أولها الاســتعلاء على الناس، ولم يكن آخرها البذخ الفاحش الذي يقتل قلوب الفقراء الرقيقة.

وأخيرًا:

- من لا ينفذ الوصــية يُحرم من إرث العائلة. جدك أعطى كل حفيد وحفيدة شــقة مفروشــة، وســيارة، ورأس مال يبدآن به حياتهما الزوجية.

حتى مع وصولها إلى هذه النقطة الحرجة من النقاش "التهديد"؛ يبدو أنه لم يظهر عليّ أدنى تأثر أو إشارة تدل على الرضا والرضوخ.

تبدل وجه جدتي فجأة من وجه هادئ واثق إلى وجه مضطرب غضوب:

- كم تشبهين أمك في العناد!

ثم أردفت في استفزاز:

- عماد رجل لا يشوبه شيء، تتمناه العديد من بنات العائلة، فلماذا ترفضينه؟! أهناك شخص آخر في حياتك؟!

مثل هذه التلميحات لا تقال لبنات عائلتنا، لذا كان توجيه هذا الســؤال الاستنكاري ضربة في وجهي بمعول:

- أسأتِ الظن بي!

– كيف تطلبين مني إحســانه وأنت صــندوق مقفل لا نرى منه إلا الشكوك والظنون.

قعدت أمامها على الأرض:

– ليس لديّ اعتراض على عماد، ولا أعرف أحدًا غيره؛ لكن...

ثنت رأسها على كتفها الأيمن:

– ماذا؟!!

– لا أدري!

انتفضت جدتي وقالت بما تبقى لديها من صبر:

– لا أدري، عندي، تســاوي نعم، فلا تكثري من التردد ووافقي يا فتاة! أقسم أني لا أريد إلا مصلحتكِ!

صمتُ حائرة وشبح ابتسامة خفيفة ارتسم على شفتي.

صفقتْ بجذل وهي تهتف:

– نعم! هكذا، ولا مزيد من تمنعكِ وأنتِ راغبة.

❊ ❊ ❊

٧

تمت خطبتي بسرعة وفي سرية تامة، وكأننا نُدبِر لجريمة، كنت ذاهلة؛ كأنني أُجر إلى قدري ولا أبالي بكل ما أصطدم به في طريقي من مشكلات وحقائق، أرتطم بها أو أدفعها، أتحاشاها أو ألتف حولها، وأواصل طريقي.

قبل أيام فقط تمنيت أن أراه، واليوم صورته في هاتفي، لكنني لم أعد إلى التحديق فيها منذ أن رأيتها أول مرة، كان محملًا بالكثير من الألوان والبهارج التي تجعل صورته ثقيلة على القلب.

ورغم كل ما أشعر به من غرابة ما يجري معي منذ أن دبرت الجدة خطوبتي من عماد؛ فبحقيقة نفسية صارمة كان ذلك الأمر جواز أمان؛ فأنت ترى بعين مطمئنة بنيان حياتك القادمة، وهو في المقابل يقص أجنحة الخيال، يجعله ضيّقًا لا يتعدى ذاك الشخص ولا ذاك المنزل ولا تلك الوظيفة.

لم أكن ممن يرين أن تمتد هذه المرحلة حتى يكل الخيال ويُمل، لكنني اليوم أحببت أن تطول، وألّا يُحدد موعد معين للزواج، أردتُ أن أبقى في فرديتي أطول مدة ممكنة وكأنني أتعرّف نفسي من جديد، وأبحث عن أحلامها في حياة توشك أن تنقضي.

خاتم الخطبة في يدي يلمع وعقلي يسرح في مكان آخر قبل أن تفجأني بدخولها:

- تأتين معي!

تبعتها متشوقة لجديدها المعهود؛ رأيت لافتة على المدخل (مكتبة) فخاب ظني، وتقلّبت في عقلي الخيبات: "لا أحب القراءة، وأتشاءم من منظر الكتب الصامت".

كانت مكتبة واسعة مرتبة وأنيقة ككل شيء في هذا المنزل الجميل، وهدوؤها يشبه الهدوء الممل في كل مكتبات العالم.

"اششش" تشير بها الكتب لكل من يفتح فاه بكلمة، لذا بقيت صامتة، أقلب الطرف في رفوف ممتدة ليس لها أول ولا أجد لها آخر، كتب قديمة وكتب صدرت حديثًا قبل سنوات معدودة.

- المكتبة إرث جدك، كان مولعًا بالكتب!

على الرفوف المكتظة والمفهرسة ببطائق مزخرفة مرت عيني دون اهتمام، كانت طاولة القراءة في الوسط لامعة خالية من أي شيء، وكراسيها مرتبة حولها وكأنه لم يدخلها بشر قبلنا، وفي هذا المكان البارد- رغم حرارة الطقس- لفت نظري وجود طاولة منزوية في أحد الأركان، ممدد عليها كتاب واحد، كان غلافه يشع دفئًا وكأن أحدهم لا زال يقرأ منه؛ "ساق البامبو":

- من كان يقرأ هنا؟!

- ربما أحد أعمامك أو أبناؤهم.

مسحت ما خِلته غبارًا عن سطح تلك الرواية، حدقت فيها طويلًا، نادتني

لأحملها، تلفتُ يمنة ويسـرة، وفتحت ذراعي واحتضـنتها مخفية لها تحت ملابسي.

يزعجني معرفة أحدهم أنني أقرأ كتبًا، قد يولّد ذلك عني نظرة فتاة جافة منطوية ترتدي نظارة طبية وتضع أحمر شفاه فاقع كمصاصي الدماء.

لا أحب هذه التخمينات ولا أريدها أن تنشـر عني؛ فأخفيت الكتاب عن الجدة، وكنت أمامها تلك الفتاة اللعوب التي تعشـق الطبخ وتحب الجمال وتكره الكتب.

وطوال حديثها الممل عن تاريخ المكتبة وتاريخ جدي من الإمامة إلى بريطانيا إلى الحزب، كنت أنسـج توقعاتي عن الرواية التي شعرت بها على جلدي تحت الملابس تنبض وأحداثها تتنفس.

أخيرًا خلوت بنفسي، انطويت في ركن بعيد عن الضوضاء، وتهت عن العالم في التفاصـيل وبين الكلمات، دوّنتُ بعض الأفكار في مفكرتي، وكتبت أحد الاقتباسـات على طاولتي: "إن الذي لا يسـتطيع النظر وراءه إلى المكان الذي جاء منه، سوف لن يصل إلى وجهته أبدًا".

ماذا أجد ورائي؟! جمهورية! وحدة! ثورة! انفصال! جوع، فقر، بطالة، وإلى أين نذهب؟ حرب!

من أين جئت؟ وإلى أين سـأذهب؟ ليسـت أسـئلة وجودية اليوم بقدر ما هي أسئلة وطنية، عن أي وطن أتحدث؟ اليمن، أم السلطنة، أم الجنوب العربي، أم الجمهورية الديمقراطية الشـعبية، أم الإمامة... أيها الوطن الذي ننتمي

إليه وندافع عنه؟!

عدتُ إلى صـــفحات الرواية الدافئة بعيدًا عن ســـخونة الواقع، حتى إذا ما انتهيت منها؛ شعرت بالامتلاء، فتحت النافذة سريعًا وتسربت شقاوة الشارع إلى الداخل ولامست بأطرافها داخلي الضاج بالحياة، وابتسمتُ بفرح، ومن تلك الليلة أدمنت القراءة، كنت أتســـلل ليلًا إلى المكتبة، أعدو إلى الطاولة ذاتها، أعيد كتابًا وأحمل آخر.

وفي غمرة شـعور التجربة الأولى، والكتاب الأول، والحرف الأول؛ اندلعت الحرب!

❊ ❊ ❊

٨

مع أول طلقة انقلب عالمي، كنت أعيش في حالة سلام نفسي لم أجربه يومًا، في عالم حقيقي رتبه أجدادي، وعالم خيالي ممتع صنعته الكتب.

شائعات كالنار انتشرت عن هروب الرئيس وبدء المتمردين التحرك نحو عدن، الخوف يسري قبل المخوف، والفتيل يشتعل قبل اللهب، لا أدري ماذا أفعل غير الالتصاق كبقية العائلة السلطانية بالتلفاز، أتتبع الشائعات، أرجو الصدق لا الزيف والادعاء.

حالة تطمين غريبة أراها في التلفزيون المحلي، مذيع ومذيعة يتجولان ليلًا في شوارع عدن لإثبات ذلك الأمان، صحفي عدني في بث مباشر مع قناة إخبارية شهيرة يؤكد اتصاله بمكتب الرئيس قبل دقائق وأن الرئيس لم يهرب، تقاطعه الخطوط الحمراء التي تدور في الأسفل كتنانين تنفث نيرانها في عقلي المُسالم: "عدن: معسكرات تم نهبها من قبل متظاهرين يطالبون بتسليحهم لمواجهة المتمردين".

توقفه المذيعة بصوت متلذذ فكل الأخبار المفزعة هي شهية لمن يقتنصها في عالم الترند: "تم التأكيد على هروب الرئيس من عدن إلى جهة مجهولة. والرئيس السابق يتوعد الرئيس الهارب بمصير كمصير من هربوا في ١٩٩٤م".

أصبحنا بين سابق وهارب لا ندري من يحكم البلد؟!

تتداعى صـور حروب سـابقة ولا تخمد لهب تلك الحرب ١٩٩٤؛ الحرب التي أوقدت نيران ثأر لم تنطفئ حتى اليوم، ذكريات سـوداء أليمة حُفِرت في رؤوس من أدرك تلك الفاجعة، أخرجت تلك الذكريات صـورًا لم توثقها كاميرا ولم يشهدها تلفاز، حُفِظت على الألسن، وجرت في الألم والعذاب.

تقول الجدة نُعمى:

– كان القصف عشوائيًا، والحصار خانقًا، والحر شديدًا.

تشرد وهي تنكت الأرض بعكازها الخشبي:

– اضـطر الناس إلى شرب مياه البحر، والبعض إلى مياه المجاري، مات الكثير بسـبب ذلك، وهؤلاء الكثير لم يوثقوا كأرقام وإنما دفنوا هنا.

وأشـارت إلى صـدرها، وتخيلت جثث الأطفال وهي تعوم في مياه قلبها المفطور؛ الشيوخ والعجائز الضامري الوجنات، كيف أصبحت تلك الجثث بعد كل تلك الأعوام، لم تذب في المحيط، بل بقيت تكهرب جسدها العتيق بآلاف من الأحزان والكآبة والألم.

نسـمع أصـوات القذائف فنفر إلى القبو، نبقى هناك حتى تخفت الأصـوات ويعود الهدوء الحذر، يستغل الناس تلك الدقائق الآمنة في الهروب أو التزود بالطعام لأيام أخرى في حرب مجهولة النهاية.

في الليل لا أنسـى أن أمر على المكتبة التي أهملتها الشـغالة، ظهرت الأتربة

على الكتب وفوق الطاولات.

لم أعد أجد كتابًا ينتظرني هناك على الطاولة المنزوية، يبدو أن القارئ الذي كنت أتبع خطه قد هجر القراءة مع بدء الحرب، أصبحت تائهة بين تلك الرفوف المحملة بكتب مجهولة وبخيارات عديدة، الانتقال بينها مرهق والاختيار مستحيل.

جلست إلى الطاولة في عتمة هادئة، ويبدو أني غفوت، وفي الحلم سمعت أصواتًا تأتي من مكان قريب، رجال كثيرون احتشدوا وبدأ أحدهم في الحديث عن القتال، وعن تسليح المواطنين، وعن قيادات المقاومة، وعن دعم دول الجوار.

كانت المعاني والمعلومات التي يحملها ذلك الصوت القوي كبيرة وكثيرة لم يستطع عقلي شبه النائم استيعابها.

رن منبه هاتفي الجوال، فصمتت الأصوات، وأحسست بحركة حقيقية على طاولتي. كنت ألح على عيني ألّا تفتح، أشعر أن الحلم المهم سيفر مني إن فعلت ذلك، شعرت بأحدهم يدثرني بشيء، ثم عادت الأصوات التي ابتعدت قليلًا لتتحدث، لم يعد الصوت الأول يتكلم، بل أشخاص آخرون يتكلمون عن تلك النقاط المهمة التي تحدث عنها الصوت الأول، ثم اختفت الأصوات، وانتهت الحركة.

وبدأ داخلي يصنع الشخوص ويرسم الأحداث، أصوات الانفجارات، الوجوه الجامدة للمقاتلين، أكتاف تحمل البنادق، العرق يغرق المكتبة،

الكتب تطفو، الحروف تنسكب من داخلها على الأرضية، تتكون سحب في الفراغ، رائحة الجثث المتعفنة تطير في الهواء، تدفع سحابة مثقلة بالمطر، تهطل على أرض جرداء، تنبت رؤوسًا مقطوعة وأصابع مبتورة، ينفتح الباب ويغلق، أمر من خلال الباب، أصعد إلى السطح، أحادث النجوم، يسخر مني القمر، أبكي، أشعر ثانية بحركة على طاولتي أفتح عيني عندها، لا زالت العتمة تلف المكان، الحلم ذهب كما توقعت لكنه ترك لي شالًا رماديًا وكتابًا على الطاولة.

❊ ❊ ❊

٩

ليس بعيدًا عن منزل جدي، تمركز المتمردون، اعتلى قناصوهم المباني العالية والعمائر المهجورة المطلة على الشوارع الرئيسية والفرعية.

"لقد سيطروا على التواهي!"

بقيت المقاومة تناوش هنا وهناك، أو تحاول اقتحام المنطقة وتطهير المدينة، أما السكان؛ نجا من نزح، والعذاب لمن بقي، وكنا ممن بقي، حتى ذلك الصباح الرمادي لم يحدث شيء يجعلنا نقرر الخروج من قصر جميل إلى بيوت أقارب مجهولين أو خيام بالية، كنا نسمع أصوات الاشتباكات القريبة، نرى الأدخنة تتصاعد، نسمع عن مقتل فلان وفلان من الناس، لكننا لم نرَ كيف تسيل الدماء وكيف تقطع الرؤوس. في ذلك الصباح الرمادي قُصِفَ قصر جدي، كنت أحلم في المكتبة، أتدثر بشال وأقرأ كتابًا، اهتز المكان، الرعب الذي رأيته في ذلك اليوم لم أشف منه حتى الآن.

كان الصراخ والدخان وتحطم ما بقي من صالة الطعام التي كانت تفاخر بها جدتي هو ما أعقب صوت الانفجار، لا أدري كيف وصلت إلى المكان، ولا كيف نزلت تلك الدرجات، وصعدت ذلك السلم، كأنني كنت في الأعلى وسقطت إلى الصالة التي سقطت قبلي.

كان الدخان وصراخ جدتي هو أول ما استقبلني، لم أرَ شيئًا في البدء سوى

تلك الثعابين السوداء التي ترتفع إلى السماء، لم أكن أعلم أنها كانت محملة بأرواح بريئة، لم أكن أعلم أنها كانت محملة بروح التوأم ليلى وأحمد، لم أكن أعلم أنها أخذت معها روح أمي، ولو علمت ساعتها للوحت لها بيدي وابتسمت رغم دموعي؛ لكنني انشغلت عنها، ضللت بين الأعضاء الممزقة والدماء، كان عقلي ينطق بعدم التصديق وقلبي يرتجف كورقة الخريف من الصدمة والهول، لم أعِ ما كنت أفعل إلا عندما سمعت صوته من خلفي:

– ما تفعليه جنون!

نظرت إليه، كان وجهه ملطخًا بالسواد، ويداه تملأهما الدماء. مد يده وانتزع قدمًا ويدًا من يدي:

– لا يمكن أن يعود ما بُتِر، لا يمكن أن يعود من مات.

نهرني عندما عدت لألصق الأعضاء من جديد؛ رأس أمي شبه المكتمل بيد أحدهم، ذراع ليلى بأصابع أحمد.

هزني وأخرجني من المكان وأمر بنات عمي بمنعي من الدخول وعاد. كان يبحث هو الآخر عن شيء في وسط الركام المختلط بالأجساد المهروسة، حدق في الأيادي المقطوعة، الأصابع المحترقة، ووجده هناك؛ إصبع أمي الدامي الذي يحمل خاتم زواجهما، غسله ثم وضعه في منديل معطر، ثم لفه في ورقة أخرى، وعند الدفن وضعه في حفرة منفصلة بالقرب من زهرة دوار الشمس التي يحبها.

رحلنا بأجسادنا من المكان وبقيت أرواحنا هناك، تبحث عن الراحلين الذين

تركونا دون وداع أو سلام.

منذ وفاتها لم أستطع النوم إلا وهي تأتيني، تقسم أنها لم تمت، تفعل ذلك مرارًا بعناد عجيب، كنت أراها في كامل عافيتها صغيرة جميلة رقيقة تداعب الأزهار! لو سمعت وصفي لها لرمتني بأقذع الألفاظ، أتحب أمي الزهور؟! أكانت رقيقة؟

إذًا كيف أتخيلها؟ كما كانت! أيعجز خيالك عن كيف كانت؟ صمتُ حائرة، وواصل الخيال المحدود نسج صورتها على ما يريده هو لا ما تريده هي.

في ذلك الجو المشوش لم أعرف كيف هربنا، من تركنا في المنزل، ولا أين ذهبنا، كنت أشبه بدمية تتحرك معهم، حقيبة سوداء ثقيلة تنتقل بين أيديهم عندما أعجز من شدة ألمي عن المشي.

انتقلنا بين بيوت كثيرة، رحلنا إلى مناطق غريبة، ووجدنا أناس غرباء جمعتنا المأساة معهم في بيت واحد، وتحت سقف واحد.

"تمطر!" قالت من بجواري التي لم أرَ وجهها ليلة أمس بين الوجوه العديدة، كانت شابة مثلي، لها عينان ناعستان وفم صغير جميل.

بسطت كفها من جديد وقالت بصوت أعلى وبفرح أكبر: "تُمْطر!!"

ثم قامت تصرخ، وهي تقفز في الغرفة والمطر ينهمر على السقف المشقق: "تمطر!"

أتت بقية نساء الدار، واكتظت الغرفة من جديد، وعدت إلى أمي في الحلم:

- تمطر عندكم؟!

كان وجهها هذه المرة بريئًا وكأنها طفلة في الخامسة، خشيت ألّا تفهم ما أقوله، أعدت ما قلته، حرّكتُ أصابعي أمام وجهها، مثلت ذلك بحركات كثيرة حتى هزت رأسها بابتسامة صافية.

أمسكت بيدها وطلبت منها أن تذهب معي، سألت:

- أين؟!

- حيث تشائين!

- إلى النجوم.

تمشينا في المكان رأينا طريقًا مضيئة، أشرت لها إلى أعمدة الإنارة وقلت:

- هذه النجوم.

لمعت عيناها وبكت، فبكيت لبكاء أمي:

- تكذبين عليّ!

أمسكت بيدها ثانية وصعدت جبلًا رأسه في السماء، توقفت هناك وتركتها ترحل وحدها إلى أقرب نجم، كنت أسألها عندما وصلت:

- كيف وجدته؟!

- جميل، إنه دافئ، ولونه الأصفر يشبه الجبنة.

ضحكتْ فضحكتُ، وبقينا نحدق ببعضنا حتى غفوت، وعندما فتحت عيني لم أجد أمي، وجدت جدتي بوجهها البرونزي، شعرها الأبيض، وعينيها الخابية، أرغمتني على الوقوف والسير خلفها، مالت قدماي، فأسندتني. المرأة العجوز المخروطية الجسد تسند الشابة الكروية. كنا نمشي معًا

كالرقم ١٥، مضينا بين بيوت متناثرة حديثة البناية، مناطق شاسعة ليس فيها نبت ولا بيت، سألت نفسي: "هذه ليست شوارع التواهي"!

نطقت وكأنها نفسي: "المنطقة الغربية، هربنا إلى هنا".

الشمس كانت تجلد ظهري، أحسبها كلما أطلنا المشي تقترب من رأسي، تحدق به بحقد وكأنها تنتقم مني.

من بعيد لمحت سراب خيام متناثرة تحت أشجار السُّمر، خرج من إحدى الخيام شخص كان ينتظرنا؛ أبي يرتدي ثيابًا عسكرية، ويضع على وجهه شالًا رماديًا غريبًا، وعلى عينيه نظارة شمسية.

سلمتني جدتي له، وذهبتْ، كنت مُنهكة، حاولت أن أقف أمامه لوحدي فلم أستطع، فأسندني حتى أركبني في سيارة لنقلي إلى: "المستشفى".

كنت أريد أن أسأله: "من المريض؟!" لكني لم أقدر على فتح فمي الذي لم أستخدمه منذ ماتت أمي، اكتفيت بالجلوس والتحديق عبر النافذة إلى لا شيء.

بعد دقيقة هممت أن أسأله ثانية: "هل عادت أمي للحياة؟!" لكني لم أستطع قول ذلك أيضًا، فعدت إلى النافذة وإلى أحلامي، لم أعد أرى أمي فقط، لقد رأيت إخواني وأخواتي، عماتي وأعمامي، أتخيلهم بأشكال غريبة، وهيئات أغرب، بتعابير لم أرها عليهم من قبل، يتكلمون بكلام مجنون يشبه أحلامي المجنونة، حتى عماد رأيته هناك فتى سمينًا يكبر بسرعة ويلتهم الكرة الأرضية، كنا في بطنه ندور، نرى أحشاءه ونتقيأ مما يُلقى علينا من فمه من

طعام ممضوغ، وعندما يبكي تهتز الأرض وتحدث الزلازل، ثم رأيت أبي في صورته التي أتى بها اليوم، كان يتحدث بلغة غريبة، ليست البريطانية ولا الأمهرية، لغة لم أفهمها، هزني بقوة فاستيقظت على وجهه الملثم: "وصلنا".

ساعدني في النزول وأسندني حتى وصلت إلى السرير، تمددت هناك، وأردت مواصلة حلمي، لكن الممرضة بحقنتها اللعينة حضرت، وعَلِقتُ على السرير مع مغذيتي التي كانت تسري تحت جلدي ببطء كالحرب، غبت في الحلم، كانت اليقظة تعاودني كلما حقنتني الممرضة بحقنة جديدة.

بعد زمن عاد صامتًا بلا نظارة شمسية، أوقفني ومشينا معًا، أنا وهو والمغذية المتدلية، رأيت ظلنا المنعكس أمام أضواء السيارة الممتدة، كنا نشبه العدد ١٥٠، نحن ١٥٠ شخص، ونحن شخصان ومغذية، كنت أضحك من هذا التشبيه، أضحك بجنون وعقلي يضربه دخان ذلك اليوم.

كان الظلام قد حل عندما خرجنا من المشفى، النجوم لم تخرج إلينا ولم تكلمنا في تلك الليلة، كان ليل بلا نجوم، مشت السيارة كنت فيها أتلفت للخلف، ربما أحدهم يتبعنا، ربما أحدهم لاحظ أننا لسنا شخصين بل ١٥٠ شخصًا، ربما أحدهم أراد أخذ توقيعي لأجلب له الحظ أو أدفع عنه النحس.

ربما وربما!

نمت في مقعد السيارة محتضنة المغذية، كنت أحسبها أمي، أو أحسب أمي

تحتضنني، أشكال مقلوبة لعالم مقلوب، هزني، كانت هذه هي المرة الثانية التي يفعلها، نظر في عيني: "هناك اشتباكات؛ الطريق مقطوعة".

ترجلنا من السيارة، وقفت إزاءه ورغم الظلام لاحظت أنه أطول مني بكثير، ليس كما كان قبل الحرب. تساءلت: "أبي يطول في الحرب؟!"

مشى أمامي وكان يلتفت كل حين ليتأكد أني أتبعه، كنا نسمع الانفجارات التي تضيء السماء بحمرة الخطر، لم يطل مشينا حتى أحسست بالتعب، ناديته:

- لن أستطيع المواصلة.

أمسك بيدي وأسندني، ثم طاف بعينه في المكان يبحث عن مخبأ، مشيت خلفه وقدمي ترسم خطوطًا في الأرض حتى وصلنا إلى خربة تنام فيها الكلاب الشاردة وتستوطنها الثعابين والحشرات الضارة.

قعدت على صخرة كبيرة مرتفعة عن الأرض، وبقي هو يدور بهاتفه ويحاول الاتصال، بعد أن تعبت:

- أنام هنا؟!

غمغم بكلمات لم أفهمها ثم قال:

- اصبري! سنعود إلى البيت قريبًا.

بكيت بصوت مرتفع معترضة وأنا أضرب بقبضتي المتشنجة على الصخرة:

- الآن، الآن، الآن!

ارتد إلى الخلف، وركض التراب أمامه بحنق:

- ليس بيدي حيلة.

واصلت نحيبي المتقطع بكلمات تشبه الهلوسة.

- صه!

أدار عينيه مجددًا في المكان، قبل أن يواصل بعصبية ضغط الأرقام في هاتفه محاولًا الاتصال، سمعته يهمس:

- نعم! اضرب المنطقة القريبة من السنترال، إنهم هناك.

في سواد الليل حيث لا يلمع إلا اللهب، ولا يُسمع إلّا المتفجرات حلّقت طائرة فوقنا، حسبتها وحشًا أسطوريًا زار جزيرة العفاريت المتقاتلة التي نسكنها.

- طائرة!

اخترق الطيار جدار الصوت فملأني الرعب، وصعد أبي على جدار مائل ونظر إلى منطقة السنترال، سمعت دوي انفجار هز المكان، نزل عن الجدار وهو يضرب قبضته بكفه في فرح:

- تمام!

كان يتصرف بغرابة وتهور وكأنه شاب لم يبلغ الثلاثين، أذلك لأن أمي ماتت، هل ارتاح بغيابها أم أنه جُن؟

- نذهب إلى البيت؟!

نظر إليَ مندهشًا وكأنه نسيَ وجودي معه، غمغم بكلمات لم أفهمها كالمرة السابقة ثم أمرني باللحاق به، عدنا إلى سيارته.

- اسمعي!

ونظر من المرآة في عيني، عيناه هما عينان أعرفهما، لكن هل هما عينا أبي؟! كان الظلام كفيلًا بعدم التمييز وعدم الفهم وعدم الإدراك، بقيت صامتة فواصل:

- الطريق إلى المنزل قُطِع، هناك طريق أخرى، مشكلتها وجود أحد القناصين في أحد العمائر المهجورة المطلة على الطريق... سنمضي من هناك، وعندما نقترب من القناص سأقود بجنون، لذلك لا تصرخي ولا تخافي! اخفضي رأسك تحت المقاعد فقط.

كان يصرخ وهو يتكلم، لماذا يفعل أبي هذا؟ كان هادئًا معي قبل وفاة أمي، أنا ابنته الأخيرة المدللة التي لم تكن كأي ابنة أخيرة.

زارتني الظنون، وبدأ الشك يضرب بأطنابه في قلبي، لم آبه لما ينتظرني بعد دقائق من رصاصات قاتلة من قناص محترف، كانت غيرة أمي تأكلني وأنا أرى أبي يتحول إلى شاب طويل متغير الطباع يبحث عن عروس جديدة بعد أن تخلص من أمي؛ التفصيلة الأخيرة من استنتاجي.

"لكن خالتي لا زالت هنا!" اعترضت على نفسي، وأجبت نفسي بنفسي: "هي امرأة بلهاء يمكن خداعها بكل سهولة"!

قاد بجنون كما وصف، السيارة تهتز وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ الدخان يتصاعد من محركها المهترئ الذي يصدر أصواتًا مبحوحة.

أشـار بعصـبية إلى بناية يخفي رأسـها الظلام وتُظهِر قدميها أضـواء السـيارة الصفراء:

- القناص!

تقدمت السـيارة واختبأت تحت المقاعد، أحب الحياة وأهرب من الموت، هذا ما شـعرت به عندما تكورت على نفسـي في ذلك الحيز الضـيق، نسـيت موت أمي، ونسـيت أبي وغيرتي، وتذكرت شـيئًا واحدًا، بدا كبيرًا ومتطاولًا حتى سد عليّ الأفق فلم أرَ سواه: "أنا!"

عندما بدأ إطلاق النار وضـعت يدي على أذني، شـددت جسـدي إلى القاع أكثر، تمنيت أن أكون مسـمارًا من مسـامير المقعد لا يُرى ولا يُصـاب ولا يتألم ولا يطلبه أحد.

"لماذا يريدون قتلي؟!" ظللت أردد، ليس لي دخل في قتالهم، لم أوظف منذ أن تخرّجت في دولة الرئيس الهارب، ولم أتلقَ تعليمًا ممتازًا عندما كنت أدرس في دولة الرئيس السابق، كنا في صنعاء نقتات على الفُتات الذي يُسمى معاشًا، وهو لا يكفي لمصاريف دراستنا، لا ينقذنا من العوز إلا هبات تصلنا بها جدتي نعمى من استثمارات جدي التي تركها أبي بسبب خلاف عائلي مع والده، وعندما بدأت نذر الحرب لم ينقذنا إلا منزل جدي الذي عاد إليه أبي بعد هجر.

والآن حطمتم ما لم يكن لكم فيه فضـل، ها نحن شـاردون تطاردنا ويلاتكم التي هربنا منها، تلفظنا الحياة إلى الموت، نهرب قبل أن نسـقط في براثنه،

نبقى نطفو في الفراغ الفاصل بينهما، البقاء هنا مرهون بقدرتنا على الطفو؛ أن نكون أخشابًا تتحرك وفق مد وجزر تقلباتكم السياسية!

كان الرصاص ينهمر من سقف السيارة، يخترق المقاعد، يطيح بمسامير الأبواب، رأيت ذلك المسمار الذي تمنيت أن أكونه ينقلع من مكانه ويتفتت في الهواء، أحسست بسائل دافئ يتدفق من شق خصري الأيسر، وضعتُ يدي هناك، أخرجت كفي وحدقت فيها، السواد يغمر كل شيء، كنت أعلم أنها دمائي، لكنني لا أشعر بشيء، لا زلت أسمع الرصاص، وأحس بالسيارة تهتز، ويقتلني الدخان المتصاعد من المُحرِّك.

توقف كل شيء عندما شعرت بشيء يخترق رأسي الذي أسندته على المقعد أمامي وسقطت في العتمة.

❊ ❊ ❊

١٠

الضـــباب يحيط بي، أنا موجودة وغير موجودة، فهل أفكر أم لا أفكر؟ إجابة لن أجدها حتى عند ديكارت الذي شككنا في كل شيء.

بصـيص ضـوء يلعب أمامي، كتلة صـغيرة من لهب أراها بوضـوح تتحرك في ستار الضباب، أتبعها ببصري، أشم رائحتها بأنفي، "رأسي ينزف!" تذكرت، وعقلي بدا متوقفًا عن اسـتيعاب أي شـيء، أهوي إلى مكان خرافي، تلتصـق الأحلام بي، تخنقني بألوانها الزاهية، وأصـرخ: "لا أحب اللون الوردي ولا أي لون آخر، أريد اللون الأسود."

تتدفق الألوان، ترميني بعيدًا عند خط الأفق فوق قوس قزح، أسـتريح هناك، وأرى تحتي الأرض الخراب؛ البنايات المهدمة، الدبابات والأســلحة، القنابل تتفجر في كل مكان، يهتز قوس قزح، أتشــبث به، أرى البناية التي احتلها القناص، أقدامها العائمة في الظلمة، ورأسـها المربوط بالسـماء، أرى سـيارة أبي تمشـي هناك وهي تحترق، أرى وجه السـائق؛ أبي ملثم طويل وشاب، أراني في الخلف تحت المقعد، أصرخ في نفسي: "القناص!"

أشعر بك تنكمشين أكثر، أرى الدماء تتدفق، أصابتك رصاصة، ثانية ثالثة، الدماء تحجب رؤيتي، أسقط في السواد.

أفيق على لا شـيء، المكان خالٍ إلا من دبيب شـيء ما، البياض البارد

يجعلني أتمنى الألوان، لم يكن ينتظرني أحد، كانت تنتظرني نفسي، بدت متألمة كثيرًا والضمادات تغطي جسدها بالكامل، أنبوب يخرج من صدري وآخر من رقبتي، أنفاسي مُشبعة برائحة الكلور التي أمقتها، ارتفع صوت آذى سكوني المتألم، كان من جهاز معلق في الجدار عن يميني، الصوت ازداد ارتفاعًا، كنت أشعر أني أتحلل في حمض مذيب، حتى دخلت امرأة تتشح بالبياض، رأتني فصرخت: "استيقظت!"

ثم صرخت وهي تعاين شاشة الجهاز التي ترتسم فيها خطوط صفار وحمراء ترتفع وتنخفض: "هناك خطب ما!"

جاءت أيادٍ كثيرة، أعين ازدحمت في مجال رؤيتي الذي ضاق فلم أعد أرى أحداً، دخلت من جديد إلى عوالمي الخيالية، لا شيء يؤلم هنا، لا دماء ولا قنص، سكون جميل، راحة أبدية طالما تطلعت لها روحي في زمن السلام، فكيف لا تحبها في زمن الحرب؟! لم أرَ أمي ولا أبي ولا أحد، كانت آلامي النفسية والجسدية أكبر من أن يضمدها ظهور رجل أو امرأة في حلم، كنت أحتاج إلى الله، أحتاج إلى رحمته، إلى قوته، إلى قدرته، وإلى ألطافه.

أشعر بلسع النار في صدري، "واحد، اثنين، ثلاثة"، جسدي يهتز تحت تلك الحرارة التي تنتشر في أنحاء جسدي كتيار كهربائي، ثم أرتخي كورقة، ثم أشتد بعد لسعة أخرى.

أيادٍ تقلبني ظهرًا لبطن، تقذفني إلى الأعلى، أعود إلى الأرض بارتداد عنيف، تتقلص معدتي، وأشعر بحرقة تكوي داخلي، أكاد أتقيأ، لا يوجد في

الداخل سوى تلك الآلام المتفجرة لأخرجها من جوفي المحترق.

فتحت عيني، قلبي يضـــخ دمًا بطيء الخُطى، أشـــعر بذبذباته الدافئة تذيب برودة جســـدي المُســـجى، أتأمل المكان، وفي حلقي جحيم لا يطاق، أنفي تملأه الأنابيب، وعلى فمي جهاز التنفس، أذناي سُدّتا بقطن كثيف، لا شيء يثبت وجودي إلا عيني التي رأت قتامة العالم.

"عادت إلى الحياة!"

صرخ رجل متشح بالبياض:

"لماذا لا أفيق على لون غير لون الكفن؟"

وتوقفت عن التســـاؤل عندما رأيتها قادمة، ســـمراء تلتحف بالبياض، لون جمع بين ســـوادي الداخلي وبين بياض المشـــفى، كانت تتطلع إليّ بذعر لمســـته في عينيها الدامعة وكفيها المقبوضـــة على عكازها الخشـــبي، ثم ظهر أبي، شعراته البيضاء التي تزين مفرق رأسه، بشرته الناصعة المشربة بحمرة، وهندامه الذي لم يتغير إلّا في ذلك اليوم المشؤوم.

تلمسته عيناي تبحث بفزع عن جرح في جسده، أو عرج في مشيته، أو ألم في وجهه، ثم فاضـــت دموع فرحي، انســـكبت على وجنتي، وضـــع يده على ضمادي.

علم بسؤالي المحبوس خلف غلالات الدموع فأجاب:

– هو بخير.

تساءلت:

- هو؟!

لكنه لم يدرِ ما أقول، ولم يعلم بما يدور في عقلي سوى تلك النظرة المشحونة بالألم التي عبرت قلبي وانطلقت من عيني لتصيب عينه:

- عماد بخير، رضوض بسيطة وترينه هنا.

هرب بعينه من عيني وربت على ضمادي من جديد.

إذًا لم يكن هو هو، بل كان عماد! كنت ذاهلة غير مصدقة، يقتلني التذكر، وتعصف بي الخواطر الموجعة، كنت غبية، كيف لم أدرك ذلك، كنت أسأل بإلحاح يكاد يصرخ من بين اللفائف البيضاء: "ثم ماذا حصل؟!"

- كنتِ تهذين منذ وفاة أمكِ.. لا تفعلين شيئًا غير النوم، والهذيان.

لِمَ أعادوني إلى وجعي الأول؟ أريد أن أعلم ما حصل لي في وجعي الممتد بخريطة هذا الوطن.

- لن تبقي هنا طويلًا، يجب أن تستعيدي جزءًا من عافيتك حتى تستطيع جدتك نعمى الرحيل معك لعلاجك في الخارج.

وعاد إلى التربيت على ضمادتي وهو يقول بألم:

- لا أريد أن أفقدكِ كما فقدت أمكِ وريان.

ثم خرج وهو يمسح عينيه.

كان يُلقي بالكلام مفككًا، وكأنه لا يريد لي أن أفهم أو أسأل، عيناه الحزينة فقط هما من تنطقان بالحقيقة لكنها حقيقة لا أفهمها.

وبقيت عيناي تتبعان قفاه حتى أغلق الباب خلفه.

- الباب مغلق! أكره الأبواب المغلقة.

تراجعت عيناي حيث الصوت القوي يقف:

- كدتِ تموتين، لولا عماد.

وغصّت بالكلمات.

ثم سرحت عيناها في النافذة وعادت بعد دقيقة كئيبة لتقول بمرح مصطنع:

- طبيبك المجنون يقول أنكِ بخير ما عدا كسر في الحوض، قد يؤدي إلى شلل دائم إذا تأخرنا في علاجك.

حرّكت عكازها ومعه حركت أعصابي:

- لا تقلقي! إن حدث هذا أشتري لكِ كرسيًّا مُتحركًا وأطوف بك العالم، لكن قبل ذلك سأذهب معك إلى مكان آمن.

وكنا أنا وهي ومرافقتي الطبية بعد أسبوع في عرض البحر المترجرج الذي أخذ الكثير إلى قيعانه السحيقة؛ لكنه اليوم بدا مسالمًا كأعدائنا الذين فتحوا لنا الطريق المغلق بعد اتصالات أجراها أبي لأعبر بين المتخاصمين بسلام إلى ميناء البريقة ومنه إلى جيبوتي.

أمشي على الساحل بعكازين، أخط بهما في رماله الباردة آخر وجود لي هنا، تحوطني الجدة والممرضة، لا أم لي، ولا أب يقف معي، فلم يسمح لنا باصطحاب أي رجل، كان ذلك شرط مغادرة عدن.

الوقت الذي غادرنا فيه الشاطئ كان سَحَرًا، حيث النجوم طالعة، والسماء

باردة تترقب صبحًا مليئًا بالدماء، القمر يبدو صغيرًا مع أنه بدر، والأضواء الشحيحة يقتلها الظلام، البحر داكن، تتراقص مياهه على وقع هبات الرياح الخفيفة التي تعبر الساحل.

ركبنا قاربًا صغيرًا لكنه حديث، لم يكن فيه إلا نحن الثلاث، وثلاثة رجال أفارقة، وقائد المركب المختلط الجنسية والذي كان بارعًا في تجاوز الأمواج والتزلج فوقها وكأنها كائنات خرافية يتلاعب بها بطل أسطوري.

بعد هنيهة انقطعت الأحاديث الجانبية فلم نعد نسمع إلا أصوات البحر، ومحرك القارب، تختلط بها أحيانًا دندنة جدتي بأغنية إثيوبية باللغة الأمهرية تتحدث عن الحب، كيف لكلمة رقيقة الحواشي أن تأخذنا من أجواء الحرب التي تصم الآذان في الخلف إلى واحة بعيدة تظللها السكينة والأمل؟!

مع شظايا الأمواج وهدير مُحرّك القارب لم ألتقط إلا عبارة "عسل حتى الشمع" التي كانت ترتفع من بين نهنهاتها الضائعة في الجوقة العنيفة التي يصنعها البحر، عبرت شجوة حزينة في لحنها المتذبذب بللها الرذاذ وملأها بالبكاء.

كانت عينا الجدة المتوجستان تتطلعان إلى اللجة العميقة للمحيط الذي يهدهد مركبنا الصغير، كما تهدهد هي الذكريات وتلفها بقماط الحنان قبل أن تضعها في مركب الفقد وتدفعها في اليم، تبتسم فجأة وتثب على قدميها راقصة وهي تغني:

يا بلادي.. يا نداء هادرًا يعصف بي
يا بلادي.. يا ثراء جدي وابني وأبي.
يا رحيبا من وجودي.. لوجود أرحب
يا كنوزًا لا تساويها كنوز الذهب.
اقفزي من ذروة الطود لأعلى الشهب
اقفزي.. فالمجد بسام السنا عن كثب
اقفزي.. فالمجد ما دان لمن لم يثبِ

انهمرت الدموع وهي تعيد تلك الكلمة الوثابة الفرحة "اقفزي"، في أجواء الحرب المشتعلة... كيف لبلدٍ أن يقفز ونحن نراه يتخبط مُحترقًا!

لم أشعر بالجوع على قاربنا الراحل؛ لكنني مُجبرة على الأكل حتى التخمة، أوامر الطبيب وعينا جدتي الحادتان يمنعاني من مخالفة ذلك. كنت آكل بتقزز ودوار البحر يأخذني إلى ذكريات قديمة لرحلات صاخبة كنا نقوم بها، وقتها لم أكن وحيدة، بل كان الجميع معي، ولم يكن غذائي الماء مع المربى والخبز المحمص بل "بطاط الحُمُر" و"شـربة العتر"، والشـاي المُلبّن... و... و... في قائمة تطول لكل ما لذ وطاب.

أتدثّر بردائي الإضافي لأمنع الريح من التسلّل إلى عظامي المصابة، وأغمض عينيّ لأهرب من ألم الذكريات إلى ألم الجسد.

❊ ❊ ❊

١١

وصلنا البارحة إلى شواطئ جيبوتي، تلقفتنا فرق الإغاثة الأممية، وتم إدراج اسمي مع اللاجئين.

أن تصبح لاجئًا يعني أن تكون بلا وطن، فالسماء فوقك ليست سماؤك والأرض ليست أرضك، والهواء الذي تتنفسه ليس لك، كل دقيقة تتوقع أن تُلقى في البحر خارج هذه الأرض.

تمنيت في لحظة الإدراك تلك أن أكون كصديقتي سلمى التي لم تؤمن يومًا بالوطنية، ولا بالسياسة، ولا بالأحزاب، كانت تؤمن بشيءٍ واحد فقط: "الله"، وبقية الترهات تبقى ترهات. أن تؤمن بشيءٍ وتتمسك به طوال عمرك، ثم تجد أنه لم يكن شيئًا، وأنك كنت تتمسك بحبل من سراب وتمضي في قارب مثقوب، أتدرك معنى أن تستفيق على هذا الكابوس؟

غرف الإيواء تلتحف بالبياض ووسم المنظمات الأزرق يشينها ويذكرنا بأننا مجرد وجع فر من موطنه واستقر في وطن آخر كجرثوم دخيل، يجب الفرار منه، وحصره في مكان ضيق حتى لا ينتشر ويستفحل. هكذا كنت أرى انعكاس صورتي في عيون عمال الإغاثة المختلفي البشرات والسمات، وهكذا رأيت نفسي عندما دخلت إلى غرفتي وحيدة وليس معي سوى العذاب، حتى جدتي لم ترضَ أن ترافقني في زنزانة الشفقة تلك؛ فهي ليست

لاجئة بل في بلدها الأم. استقبلتها عمتي لينا وغادرتا معنا إلى منزلها في إثيوبيا. وحدي في مواجهة الجدار المتسخ مذهولة وكأنني كنت أنتظر أفضل من هذا الاستقبال الجارح.

استلقيت على سرير بارد، وحدقت بالسقف، أفتش فيه عن بصيص ضوء، عن حلم بين خربشات مجهولة، عن وطن في المنفى.

لم تتركني الأفكار المؤلمة دقيقة واحدة، فهربت منها إلى النوم حيث لم أكن وحدي؛ رأيت أمي، أبي، وإخوتي، رأيت عمادًا، رأيت صديقاتي، صعدت إلى الجبل معهن، أضاءتنا الشمس فأصبحنا طيورًا سحرية. كنت أقود الجميع، نقتحم السحب، نلامس القمر ونعد النجوم، نهوي لنغرف من البحر، ثم نُحلِّق ونُحلِّق ونُحلِّق!

طرق على الباب أيقظني من النوم، فُتِح فجأة واندفعت ممرضتان، إحداهما مرافقتي السابقة. تحدثتا معي بالإنجليزية، وكنت أجيب بنصف وعي وبنصف لغة.

حملتاني إلى الخارج، حيث كان المخيّم يغرق في اللون البرتقالي لغروب الشمس. كان ذلك الغروب شبيهًا بغروب اليوم الذي سبقه، حين دخلتُ غرفة الإيواء؛ غروبًا كئيبًا، كأن يومًا لم يمرّ على ما حدث.

مرافقتي التي تبخّرت من جواري، حين اصطففتُ في طابور اللاجئين، كانت تبتسم وتعتذر، أمّا الأخرى فكانت تتحسّس جبيني بقلق، عبّرت عنه بكلمة "Dangerous" ممطوطة.

اضطربتا قبل أن تُسرِعا في مشيهما الوئيد، تتدافعان كلمةً:

اضطربتا قبل أن تُسرِعَا في مشيهما الوئيد تتدافعان كلمة:

- كويكلي (بسرعة).

أصرخ بقلق:

- إلى أين؟

ثم اتبعها بلغتي المتوسطة:

- وير...؟

كانتا ترددان بشفقة:

- يو دونت سبيك إنجِلش؟!

مشـيُهما أصـبح كأنّه جناحان يُحلّقان بي من جديد إلى أحلامي التي هربتُ إليها مجدّدًا من عالمٍ لا يفهمني. دُرتُ هذه المرّة حول السـحاب، وكنتُ وحدي، أحدّق في شـعاع الشـمس الذي اقترب منّي، فصـنع حولي دوائرَ من نور. ثم أمسكتُ به، وجمعتُه في منديلٍ أحمر، ووضعته على رأسي.

كان صـوتٌ داخليّ يطلب منّي ألّا أفعل ذلك، يصـرخ كأنّه يختنق، ويأمرني بإطلاق الشـعاع، ويخوّفني من جنوني؛ إذ كيف يمكن لبشرٍ أن يُمسـك قطعةَ ضوء؟

اشتدّ ضجيجه وهو يُحذّرني من أنّ الأرض ستموت في الظلام. كان الصوت يثرثر بمثل هذه الأشـياء، وكان عقلي يضـحك بجنون، ويفكّر بطريقة أمّي: "إن لم يكن الكون مظلمًا، سأكون أنا الظلام".

شـعرت ببركان في رأسـي ينفث حممه، ثم شـعرت بالامتلاء، والآن أشـعر بالجوع. كنت أتساءل ما الرابط بين الجوع والرأس؟!

وتذكرت قطعة الخبز والشـيء المغلف الذي تركته منذ الأمس في ركن الغرفة. أعطوني إياه عندما وصـلت بعد وقوف لسـاعات في طابور طويل. كانت تسـندني الممرضـة التي رافقتني قبل أن تختفي عندما ازدحم الجمع وكادوا يقتتلون.

أتذكر أن ذلك الشـيء القاسـي الملمس، المالح الطعم، هو آخر ما تناولته. كنت، في شـبه إغماء، أتحسـس السـرير الحار كالموقد. ملت بجسـدي وشـعرت أني سـقطت. الآلام الناتجة عن ذلك كانت تتردد كتيار كهربائي ويستقر لهيبها في خاصرتي. تمددت في المكان، أرسلت أطرافي على الأرض كخريطة. كنت أبحث بنهم الجائع عن تلك القطعة من الخبز. عند قدمي اليسرى شيء ملمسه كالبلاستيك، للحظة رأيت طرفًا أبيضًا، التفت بسرعة مؤلمة وتشـبثت كفي بتلك العلبة. لا أدري كيف فتحتها، ولكني أتذكر طعم ما فيها كلما تذكرت مرضـي. إنه طعم ارتبط في عقلي بالمرض واللجوء، مالح وقاسٍ.

أنهش فيه بأسـناني وكأنه قطعة إسـمنت متصـلب، ألتهمها وقلبي يتذكر طعم كل الأكلات التي كنت أحسـنها. لم أتذوق أردأ من ذلك الطعام في حياتي، فتشـت عن أي شـيء يهضـم تلك الكتلة المتصـلبة التي هبطت في معدتي الفارغة ككائن غريب، تلمست قنينة وإلى جوارها أخرى، أيهما الماء وأيهما

الشــراب! لم أفكر إلا بالشــيء الجاف الذي انزلق على تلك الكتلة وزادها تيبسًــا. لقد اخترت علبة الملح، لماذا يحضــرون الملح مع طعامهم المالح أصلًا؟! كدت أختنق لولا قنينة الماء التي لينت معدتي ثم نمت.

شــعرتُ بألمٍ حادّ، واندفع ســائلٌ باردٌ من رأســي. فُتِحَت إحدى عينيّ عنوةً، وسُــلِّط عليها ضــوءٌ حارقٌ شــعرتُ أنّه يخترق دماغي. ربما كانوا يفتّشــون في خبايا عقلي، عمّا تحرســه عيناي وتُخفيانه خلف صــمتِ نونهما الغامض.

تذكرت، مع تلك الأشــعة، تلك المرأة المهندمة التي تحمل كاميرا تصــوير. كانت تقف أمام أجســاد اللاجئين الممتدة في طوابير طويلة لتناول وجبة طعام، يرافقها رجلٌ عملاق، تريه ما التقطته من صيود وتستشيره في أيها أكثر إثارة وشفقة. كانت تسلط عدستها على أشد الوجوه بؤسًا وأكثر الأحداث قتامة لتعرض مأساتنا على العالم.

كنت غارقة في الألم ذائبة من الحرارة تزغلل عيناي وتتوتر نظراتي. عندما فاجأتني تلك المرأة بعدستها المسلطة على وجهي، تخيلت نفسي أعرض أمام الملايين بهذا الشكل. أرى نفسي في عيون زرقاء وشعر أشقر، يعطون من باعتهم مأســاتي ثمن تذكيرهم بإنســانيتهم ولو للحظة، تدمع عيونهم وتلتوي قســماتهم عندما تعبر صــورتي أمامهم، ثم يقفلون ملفي ويكتبون اســمي رقمًا ويرمونني بين ملايين الملفات المُكدّســة في أقبية النسيان.

هربت منها، فتبعتني بحركة رشيقة متمرسة على تتبع تعاسة وطن تتلوى في الآلام. كنت أمامها كفأر يغطس في جمع الفئران أمام مخلب قط لا يريد سواي. أهرول بعكازي بين الجموع المتعرقة، أدفع الأكتاف الناشزة التي تسد مجرى حريتي، أصطدم بهذا، وأتعثر في قدم ذاك؛ لكنني أمضي، تطاردني وحوش الذل وترسم بخيوطها آثارًا أخرى لمأساتي.

وأخيرًا رأيت المد الأسود؛ دفنت نفسي بين النساء الملتحفات بالسواد، فشكلنّ حولي سوارًا من لهب.

وقف الرجل والمرأة مدهوشين أمام تلك الغمامة الغامضة التي لا يُرى منها إلا حدقات جارحة. كنت أحسبها ستعود خائبة؛ رأيتها تشير من بين السواعد إليّ وكأنها تحاول قنصي، لكن كيف؟! ذهب الرجل العملاق، أحضر عربة ينتصب عليها سلم كتلك الأداة التي يستخدمها المصورون في المهرجانات الحاشدة ومباريات كرة القدم، حيث يقنص المصور بكاميرته من يريد ولو كان بين حشد هائل.

بقيت مذهولة أنتظر أن تصعد على سلمها، وكأنني أنتظر صعودي إلى المقصلة. سمعت إحدى النساء، ممن رأت ترصدهم لي، تحرض الأطفال على قذف تلك المرأة بالحجارة. كانت البداية متواضعة من فتاة لها ذؤابتان تهزهما الريح فيهتز جسدها النحيل، ثم تبعها طفل لا يتجاوز عمره السنتين، أحجاره لا تصل ولا تصيب، ثم تتابع الأطفال الكبار يتسابقون في التصويب على الرأس وعلى مصابيح العربة المتحركة التي كانت تهتز وهي تفر بها بين

أمواج اللاجئين البائسة.

عدت من الذكريات لتتلقفني أيادٍ كثيرة، كتلك التي حملتني قبل أسبوع في مستشفى البريقة، وأيادي اليوم يأتي معها الألم والخوف؛ أن تعيدني إلى البحر، أن تقذف بي في غرفة الإيواء الباردة حيث العتمة لا ضوء لها ولا شعاع.

❊ ❊ ❊

١٢

مر أسبوع منذ قدمنا إلى هنا، وخمسة أيام منذ أن كتبت لكم آخر مرة. جرت الكثير من الأشـياء، كيف أبدأ لكم، ومن أين أنتهي، أشـياء مفرحة، وأخرى غريبة، وبعضها حزين.

الآن أنا في مشـفى العاصـمة الإثيوبية "أديس أبابا"، أتلقى الرعاية بعد أن أهملت يومًا كاملًا كان كمائة عام.

أجروا لي عملية جراحية في عمودي بين الفقرة الثالثة والرابعة، أحتاج إلى تدليك تقوم به الممرضـة وتمارين رياضـية لأجهز لعمليات أخرى وأخرى تُجرى في مكان آخر، قد تكون ألمانيا أو بريطانيا أو الهند.

ها هي جدتي تتفقد كل إجراءات المستشفى وكأنها وزير الصحة. إنه تأنيب الضـمير الذي لم يتركها للحظة منذ أن عدت إليهم، تخشـى أن تتكرر تلك الحادثة معي، تسألني كلما جلستْ أمامي: "كيف بقيتِ حية وأنت هناك؟!" كل ما حدث كان نتيجة خطأ غير مقصود منها، وإهمال كارثي من الممرضة. المشـكلة بدأت عندما لم أكن أحمل جوازًا للدخول إلى جيبوتي، وجدتي لم تتمكن من البقاء معي لأنها ليست لاجئة، فتم الاتفاق مع الممرضة الفلبينية التي كانت تعمل مع منظمات أجنبية لتكون رفيقتي مدة بقائي في مركز الإيواء، حتى يتدبر زوج عمتي لينا توفير جواز سفر لي.

الممرضــة التي دفع لها مبلغ مالي كبير أضــاعتني عندما انشــغلت بترتيب طوابير الواقفين لاستلام وجبة العشاء، أما أنا فقد حملتني إحدى العاملات إلى غرفتي التي كنت أحمل رقمها ضمن أوراقي.

تضحك عمتي لينا ويهتز كرشها من شدة القهقهة عندما تتذكر ذلك:

- مسكينة تلك الممرضة، تحولت جدتك إلى عفريت عندما أتت بخبر اختفائك.

ثم تبتسم وهي تصلح شالها المتهدل وتلتمع بشرتها البرونزية في ضوء الشمس المتسلل من النافذة:

- أتدرين أني حسبتها جنت! كانت تضرب نفسها وتقول: ماذا سأقول لأبيها؟! أتراه يصدق اختفاء ابنته؟ هو لم يصدق باختفاء عماد!

وعندها صمتت وتلفتت بجسدها المترهل تتحقق من عدم وجود الجدة نعمى في المكان، فقد كان "عماد" هو جرحها الذي ينزف، منذ أن أخرجني من السيارة المحترقة ورماني بعيدًا عن طلقات القناص القاتلة، منذ أن رفع رأسه وهو ينحني لحملي إلى مكان آمن كان هو في خطر، ليس خطر وحسب بل في عِداد الموتى، تم قنص رأسه الملثم، مشى خطوات معدودة والدماء تتدفق لتلون شاله الرمادي ثم أخذتني أيادٍ أخرى منه لمقاتلين كانوا ينتظروننا في الجانب الآخر من البناية المخيفة.

اختفت جثته من المكان، لم يجدوا رأسه الذي ينزف، ولا رأوا يده المخضبة

بالدم، حطام السيارة المحترق بقي هناك شاهدًا على أني مررت في تلك المنطقة بصحبة شاب طويل ملثم.

أبي ينكر موته، ويصر على وجوده في مكان ما، وكأنه لا يريد أن يقع في براثن تأنيب الضمير من جديد، فهو، بشكل أو بآخر، سيكون سبب موت عماد، إن تحقق ذلك، فهو من طلب منه أخذي إلى المستشفى. كان كالمجنون في بحثه عنه، لم يترك مشفى إلا وفتش عنه بين أمواته ومرضاه، اقتفى أثره من مكان الحادثة؛ بحث في البيوت المهدمة، ومشط المزارع المهجورة، لم يترك الوادي القريب من بحثه النهم ولا نسي الجبل الذي تنسج حوله الأساطير والحكايات، كان كأنه يريد أن ينتزعه من جذوره ويفتش فيها عن عماد.

لكن جدتي نُعْمَى آمنت بموته من البداية، لم تنتظر البحث، ولا منّت نفسها بنجاة أشبه بالخيال، تردد بأن الحرب أبخل من أن تجود بهذه المعجزة علينا، هناك المئات من المفقودين الذين يئس الجميع من حياتهم إلا الأمهات فإنّهن يتعلقن بخيط الوهم ليبقى قلبهنّ متحرر من الحزن مُمنى بالحياة.

أما أنا فلا أدري ما هو شعوري عندما عرفت ما حدث، حزنت مدة قصيرة ثم نسيت كل شيء عندما دخلت إلى غرفة العمليات، ارتعت لمنظر الطبيب الذي لم أرَ إلا عينيه، وتوقعت من تلك الممرضة التي تحدثني عن أشياء غبية أن توقف ذلك بمجرد حقني بحقنتها التي تخفيها بين ثيابها وكأنها قاتلة

مأجورة. غبت عن الوعي، ومعه نسيت أحزاني السابقة وركز عقلي النائم على شيء واحد هو: أنا.. أنا، ولا شيء سواه، ففي الحرب لا تكون الدولة أو الأسرة أو المقاتلون في خطر، الخطر يتجاوز كل أولئك ويصل إلى ذاتك وكينونتك التي تصبح مهددة بالزوال.

هل أحببته؟! لا، فالحب والبغض يولد بعد الزواج، ما قبل الزواج هو رغبة نترجمها إلى فعل بعقد القران، حتى الرغبة لم تكن من أي منا بل من طرف ثالث هو جدي الذي أحب أن يهندس حياة أحفاده، لكن ما نفع تلك الهندسة بعد أن فقدنا كل شيء؟!

هل كنت ممتنة له لإنقاذي؟! لا، لست ممتنة لإعادتي بجسد مشوه شبه مشلول، آثار الحروق التي تملأ جسدي لم أرها إلا عندما خلوت بنفسي بعد عمليات عدة. في الحمام، أمام مرآة ناصعة، رأيت آثارًا تُدَمر مستقبل أي فتاة في زواج طبيعي، الآلام النفسية التي أعيش بها الآن لا يطفؤها إلا رحمة من الله تذكرني بالآخرة التي بت أتمنى أن أرحل إليها كل يوم.

هل أحسست بتأنيب الضمير لأني سبب موته؟ لا، لم أختر أن أكون سبب موته، وليته لم يختر أن يكون سبب نجاتي.

❊ ❊ ❊

١٣

في مطار لندن على كرسي متحرك، تقف عن يميني الجدة نعمى، وعن يساري "أَوسا"، ابن العمة لينا، الطالب في السنة الثانية في كلية الطب، وهو- بكل فخر كما يقول- مرافقي الطبي. يتكلم الإنجليزية الشكسبيرية بتمطيط تمقته جدتي نعمى ويضحك منه المُضيفون، كان شابًا مرحًا، كل شيء فيه طويل؛ قامته ويديه وأصابعه ولسانه، بوجه مربع، أسمر البشرة، جعد الشعر، واسع العينين، بفم مستدير يعلوه شارب غليظ.

ضربت الجدة الأرض بعكازها بتوتر؛ فقد مرت نصف ساعة على موعد وصولنا ولم يصل "جون" صديق أبي لاستقبالنا، فأبي من رتب أمر سفري إلى هنا. أحببت أن يستكمل علاجي في الهند، حيث الطبيعة الخلابة والشعب الذي لا يعلو طبقات فوق شعبي المنكوب، لكن بريطانيا! ألم تحتل أرضي يومًا؟! ألم نقاتلهم لاستعادة حريتنا التي سلبوها؟!

آآه! ما كل هذا الجنون الذي ورثتني أمي إياه؟! أهذا وقت الثورية؟! وفي حالتي هذه؟!

كانت جدتي تتلمظ شفتيها ساخرة:

- ألم يقل أبوكِ "توقيت إنجليزي"؟ أين هذا التأخير مما قاله؟!

أَوسا ظل صامتًا يحدق في ساعته ويزم شفتيه. ضربت جدتي الغاضبة كتفه

بعصاها الغليظة وقالت:

- وأنت لماذا لا تُحرِّك ساكنًا؟

ابتسم:

- حكمتي تقول: "إن صادفت شخصًا مُنفلتًا في الوقت فكن منضبط الأعصاب، وحكمتي الثانية تقول...

يبدو أن جدتي لم تسمع بقية حِكَمِه بل كانت تحدق بذلك الكائن السحري الذي يحمل لافتة فيها اسمي.

كانت امرأة شقراء ممشوقة القوام جميلة التقاطيع، ذات عينين خضراوين، في الأربعين من العمر تُدعى ليزا.

بعد أن صعدنا سيارتها وتوجهنا إلى منزلها حيث سنبيت الليلة، وبعد تعارف قصير عن الاسم والسن والعمل، بدا الجو مشحونًا عندما توقف الحديث في نقطة ملتهبة: أين جون الذي كان سيستقبلنا؟!" صمتت وأدارت عجلة المقود لندخل في شارع "العرب". توقفت في منعطف عند الإشارة الحمراء ثم تكلمت ببطء وكأنها تتذكر:

- هنا كنا نقضي أوقاتًا جميلة، نأكل البيتزا، ونشرب القهوة العربية، ونلعب النرد.

وأشارت إلى مطعم "زعفران" بأضوائه الخافتة وأبوابه التي تنفتح على الشارع.

سحبت نفسًا عميقًا:

- كان رافي مستمتعًا هنا، أرجو أن يكون كذلك هناك.

ونظرت إليّ بتشكك.

- من رافي؟!

رفعت حاجبيها ومطت شفتيها ثم ضحكت:

- آآه.. فهمت! أخبرني أنكم تنادونه رؤوف.

أضاءت الإشارة الخضراء فانطلقت السيارة، لكني بقيت عالقة في ذلك المنعطف. كنت في الكرسي الخلفي أرى جسدها الرشيق يتمايل أمام المقود، أتخيل كيف كان أبي يجلس معها؟ كيف كان يحدثها؟ متى تعرّف عليها؟ وماذا تمثل له؟ ركزت نظري على يدها اليسرى، إصبعها البنصر، كان فيه خاتم الزواج، الحرف المَنقوش عليه غير واضح، هل هو R أم P؟ مرت ذبابة فهششتها بيدي المكور بالضمادات، وتذكرت عندها أنني كنت أشبه بموميا‌ء على كرسي متحرك أمام هذه الفاتنة. أصابعي المحترقة، التي تظهر قليلً،ا كانت كمخالب وحش قذر منتن، أعقد مقارنة بيني وبينها، كنت مجنونة لأفعل لكنني فعلت وبدوت كأنني فأر في قمامة. كنت أريد أن أتقيأ نفسي، أن أنزع جلدي وأبقى أطفو بهذا الشيء الذي لا يعرف كنهه إلا الله.

أسمع حديثها الممتع الذي يشوش عالمي الموحش، ضحكتها الرقيقة مع أَوسا الذي وجد أحدًا يستمع إلى حكمه العظيمة ويتمايل جسده الرشيق أمام نكاته الفجة. كيف لن يعجب بها أبي وهي تملك كل هذا الجمال وكل هذه الصفات المُحببة!

تحدثوا كثيرًا وشـــاركتهم جدتي الحديث بتشـــجيع من ليزا التي بدت تودها وتقاســـمها هي الأخرى اهتماماتها الغنائية وطقوســـها الصـــوفية، أما أنا فقد كنت غائبة عن كل شيء سوى تلك الطعنة النجلاء التي سددها أبي لذكرى أمي.

التفتت نحوي بوجهها الباش:

- ســيكون ابني جون مرافقك في مســتشــفيات لندن، فهو طبيب متخصص في العظام.

صفق أَوسا:

- رائع! إذًا هو من سيجري لها عملية جبر عظام قدمها.

التمعت عيناها وقالت بقلق حقيقي:

- لا يزال مبتدئًا، وقد حذرته من أن تكون ابنة العزيز رافي محلًا لتجاربه التي قد لا تنجح.

ثم عادت الابتسامة الجميلة لتطغى على كل شيء فيها:

- لكنه ســيكون مفيدًا لك في اختيار أفضــل الأطباء الذين يكنون له كثيرًا من الاحترام، فهو تلميذهم النجيب.

أضافت وهي توقف السيارة أمام منزل جميل كتلك المنازل المثلثة السقوف التي كنت أشــاهدها في التلفاز، له حديقة صــغيرة تمتلئ بالأزهار وشــجرة مانجو وحيدة:

- ستلتقون به الآن، فهذا وقت عودته من عمله.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا، الطقس غائم بارد وكئيب، الريح تصّفُر بين الأشجار المرتصة في الشارع وتزوم أوراقها وكأنها أصوات طيور مُخيفة.
فُتِحَ الباب المُزين قبل أن نطرقه، أطل برأسه الأشقر ثم ظهر جسمه الممتلئ وطوله الفارع وهو يمد ذراعيه كشجرة مُرَحِبًا:

- أهلًا أهلًا!

احتضن أوسا الذي بدا أمام ضخامة جون طفلًا نحيلًا مُهتزًا.
ثم تقدم نحوي ومد ذراعيه وهو يهمهم بشوق وشفقة:

- ابنة خالي رافي.. اللعنة على من فعل بك ذلك!

احتضــن الكرســي المتحرك من الخلف وحملني معه إلى الداخل وهو يصوّت:

- جدتي! ابنة خالي رافي وصلت.

تقدمتنا ليزا واختفت داخل الممر المظلم قبل أن تخرج وهي تســند امرأة عجوز رأسها كالثغامة. قالت بصوت مرتعش عندما رأتني:

- حفيدتي!

❊ ❊ ❊

١٤

عن يميني جدة بيضاء متكورة كقطع الصوف، وعن يساري جدة سمراء ممشوقة القوام كغزال.

أرى في عين الأولى ألمًا ممضًا ينز من صوتها المجهد وهي تربت على يدي بحنان، فيما الثانية ترمقني بعيني صقر مهمته حمايتي من الأيادي العابثة. تسطع عيناها الخابيتان عندما ترى حُمرة غريبة على وجنتي وتلوي شفتيها بتوتر وهي تضع يدها على جبيني المُتعرّق. أتكئ على وعودها كحقائق، وأنام في حجرها وكأنني أنام في السحاب.

جدتي البيضاء جوانا هي أم أبي، أماتها جدي أسعد في ذاكرة ابنه لينسى الأم التي تركته لتتزوج برجل آخر. دارت الأيام وتذكرت ابنها، وتذكر الابن أمه، فتواصلا بطريقة ما، والتقيا في لندن. علم جدي باللقاء، فحذّر أبي من تكراره، لكن أبي لم يطق البعد عن أمٍ هجرها زوجها البريطاني، تسير وحيدة مع ابنتها ليزا في مجتمع لا يرحم. كان يلتقي بها سرًا كلما عنَّ له المقام في لندن، يهبها أمانًا وتمنحه أمومة ولى زمنها الأول.

تكررت تهديدات جدي لأبي، لكنه كان ابنا عنيدًا، فكرر لقاءاته بعدد تلك التهديدات.

في لقاءاتها به كانت تفضي بمخاوفها التي تزداد مع تدهور حالتها الصحية،

توصيه بأخته ليزا التي لم تتجاوز الحادية عشر من العمر. كان يرى بعد كل لقاء أن أمه تودع الحياة وتقترب من الموت، وبشهامة ووفاء عربي قرر البقاء معها مُتعلِلًا لجدي بالدارسة في جامعة لندن، لكن جدي كان يعرف كل شيء وكأنه عرّاف، ومنذ أن ركب أبي رأسه والتحق بجامعة لندن وجدي يقاطعه؛ حرمه من الميراث، ومن الاستثمارات التي كانت تغدق على إخوته المليارات التي جعلتهم في بحبوحة من العيش.

لا أدري لِمَ يتغير بعض الناس عند تقدمهم في العمر فيما يبقى آخرون وكأنهم هم في كل السنين! رأيت صورةً لجدتي البريطانية في شبابها، كانت فاتنة! لا شيء بقي من تلك الخدود البضة ولا من ذلك الشعر الأشقر اللامع والعيون الخضراء الساحرة، لا شيء إلّا بدانة مُفرِطة لشيء مُتشقٍ أبيض يتحرك بصعوبة.

وفي المقابل لا شيء تقريبًا تغيّر في جدتي نُعمى، هي هي بقوامِها الرّشيق وطولها الفارع وجمالها الحاد المُجلل بالسُّمْرة، لا شيء إلّا زيادة طفيفة في عدد التجاعيد وانحناء بسيطٍ لفقرتينِ في الظهر.

إن عالم الجدات ساحر وموجع، يأخذك إلى عالمٍ بعيدٍ لم تتخيل يومًا أن هناك من عاش فيه بهذه الطريقة، فالجدة نعمى تتذكر كيف كانت رحلات الحج تتم بالبعير من منطقة عفار في جيبوتي حتى تصل إلى البحر، لينتقلوا إلى ميناء جدة بالسفن والمراكب. حكت لي عن جدها الذي فُقِد في البحر عندما ذهب حاجًا، كان يرتدي ثيابه البيضاء ويلبي قبل أن يغرق مركبه في

لجة عمياء إثر ريح عاصـف. تقول إن ذلك الجد ظل صـدى تلبيته يتردد في البحر كلما مر قارب أو سـفينة حيث غرق، وتقول الجدة بصـوت صـوفي إن بعض المسـافرين رأى جدها الصـالح بعد غرقه بسـنين يقف على الماء وهو يرتدي ثوب الإحرام.

أما جدتي جوانا فكل ما فيها يحكي قصـة شـقاء أبدية، حتى عندما تضـحك، وهي تقص عليّ شقاوة أبي في صغره، كانت كلماتها تبكي.

هناك نوع آخر من الجدات، ليس من نوع الجدة المُسـالِمة البكّاء أو الجدة المتسـلطة الحديدية، إنها الجدة المشـاكسـة. كانت أم أمي هي تلك المرأة التي أقصـد، لم تكن تفتح باب بيتها إلا عندما نغني لها أغنية، وشـرطها المعجز أن نأتي بأغنية لم تسـمعها من قبل. كان إخوتي يعجزون عن مجاراة جنونها، أما أنا فقد كنت أسـهر الليل وأنسـج كلمات أغنيتي الخيالية التي تفتح لي بوابة بيتها الخرافي. كان الدخول إلى هناك أشـبه بالدخول إلى الجنة، فجدتي الشريرة تتحول بقدرة قادر إلى طفلة غريرة تلعب معنا بشغب واضح؛ فتتزحلق فوق إطارات السيارات القديمة على هضبة من الحصى، وتدفعنا فوق مرجيحة مُعلّقة بأغصـان شـجرة مُعمرة، وتهرب معنا من الثور الغـاضـب في زريبـة حيوانتهـا، تقطف زهور حـديقتهـا الجميلـة وتـدوس أشـجارها معنا!، لكن ما أن نخرج من باب بيتها حتى تعود تجاعيدها وينحني ظهرها وتأخذ عصاها وتهشنا من أمام منزلها بقرف وكأنها لم تلعب معنا قبل قليل!

من عجائب تلك الجدة الغريبة أنها كانت تخفي في مكان ما من سور بيتها الكبير خردوات كثيرة؛ الملايين من علب الزيت الفارغة، آلاف من براميل الطلاء التي يعود تاريخ إنتاجها إلى الستينات، أشياء قديمة لا تستخدم إلا في معسكرات الاعتقال وفي حروب الإبادة وفي المجاعات والكوارث الطبيعية؛ هناك شيء غريب من مخلفات الحرب العالمية الثانية يربض أمام البوابة الداخلية لفناء منزلها شكله مخروطي وله رأس مدبب، وفي طرفيه ما يشبه الأجنحة، يصدر صوتًا مُخيفًا كلما وقع ضوء الشمس على عينيه. تملك سلسلة مُحيّرة، أسمتها بسلسلة الأذرع السبعين، لها سبعون رأسًا، وسبعون مقبضًا، وطولها سبعون ذراعًا، تظهر فيها آثار دماء ومزق من فروة رأس وأجزاء من أظفار مقصوصة لا يُعلم صاحبها. لديها كمامات ضد الغازات المُميتة، وبدلات ضد الحرائق وأخرى مقاومة لحرارة البراكين من على بعد ستة أقدام. حفرت بئرًا عميقة في فناء دارها رغم وصول المياه إلى المنازل بالأنابيب، ولديها حفرة أخرى لتصريف مياه المنزل، ومجاري خاصة لها أنابيبها الخاصة بعيدًا عن أنابيب المجاري العامة، لديها أيضًا خزان للحبوب، وآخر للغاز الطبيعي، ومخزن للحطب.

يبدو أن هذه الجدة عاشت جميع أزمات الكون الطاحنة مما جعلها تحرص على كل شيء وتحتفظ بأي شيء. كانت تردد دائمًا بنوع من الفخر أنها عاصرت في صباها أزمة حصار السبعين يومًا، ومن قبله اقتحام القبائل لصنعاء، رغم أنه لا يُعرف أنها خرجت من عدن طوال حياتها الطويلة إلا بعد

عام تسعين، بل أظنني لو أخبرتها بالمجاعة التي اجتاحت إسبانيا قبل مائتين عام لقالت بكل وقار وهي تفتل صوفها لدبغه: "نعم! كنتُ هناك في المراعي أرعى أغنام أمير قرطبة!"

بعد انتهاء حرب أربعة وتسعين كان الناس يتحدثون عن مجاعة وعطش جماعي مات منه الكثير فتتساءل: "متى حصل هذا؟!" إذ كانت الأطعمة الطازجة تقطفها من حديقتها الجميلة والمعلبات تملأ حاوية تربض في فناء منزلها، والمياه تجري من البئر العميقة التي حفرتها في المرآب، والكهرباء تنتجها المولدات التي تسقيها ببراميل البترول المكدسة في مخازنها. شيء واحد أزعجها في تلك الحرب، هناك رصاصات عبرت الفناء وحطمت واجهة المنزل وأخرى هشمت زجاج نافذة المطبخ واخترقت حوض الغسيل. كان ذلك الأمر يؤرقها، وهي تتساءل: "لو أني كنت في المطبخ! ولو أن الواجهة وقعت على رأسي عندما سقطت!" لذلك شرعت بعد الحرب في حفر الأنفاق تحت منزلها، وإنشاء السواتر الترابية والمتارس في الفناء، ولولا المرض الذي ألجأها للعيش معنا لاشترت مضادات للطائرات ومصفحات مضادة للرصاص.

مع كل حرص هذه الجدة على مواكبة تقلبات الأمور العجيبة في اليمن والتي لا يتوقعها أحذق المحللين السياسيين فلم يحتمل جسدها الشائخ طقس صنعاء البارد المتيبس فماتت بعد مقدمها بمدة قصيرة!

هي جدة كالأسطورة في عيون الكثيرين ممن عرفوها، وما أن يتذكرها

أحدهم حتى يقول بإكبار ظاهر: "كانت دولة في دولة! ففي كل مرة تنهار فيها الدولة نلجأ إليها" ثم يسرد عليّ بطولاتها الخيالية في أزمنة الحرب المتطاولة. أحدهم أخبرني أنها أنقذت عشرات الأسر من الجوع والعطش في عدن، في حرب أربعة وتسعين، وهناك من يصفها بالبطلة بعد نجاحها في تهريب عدد من أنصار "علي ناصر" المهددين بالقتل في حرب ستة وثمانين، وتمكنت من التسلل إلى أحد مراكز الاعتقال وأخرجت مجموعة من الأسرى الذين لا زالوا أحياء حتى اليوم وأفواههم تلهج لها بالدعاء، وفي قصة بطولية جديدة حكاها لي خالي تصف بطولتها في أحداث الإنقلاب على "سالمين" ونجاحها غير المفهوم في الدخول إلى القصر المدور عندما تم حصاره، وعرضها عليه الهرب قبل أن تبدأ الدبابات بدك المكان. "كان يمكن لسالمين أن يبقى حيًّا إلى اليوم لو استمع لنصيحة أمي"، هكذا يقول خالي وهو يتنهد ويعيد ترتيب دكانه الصغير. أما أنا الفتاة الصغيرة حينها فقد كنتُ أخال الجدة "سوبر وُمن" تنطلق في ليالي عدن الحارة لتطلق الأسرى وتعيد المعتقلين وتلاحق القتلة والمجرمين، حتى أنني بعد موتها كنت أفتش في ثيابها عن ردائها الأسطوري الذي كانت ترتديه في رحلاتها المكوكية إلى تلك الأماكن التي لم تصل إليها يد التاريخ وإنما دوّنتها أفئدة عطشى للمعجزات مفتقرة للبطولة في زمن أسود كئيب.

هذه إحدى الجدات الخارقات، وهناك جدة أسطورية أخرى لم أرها بعيني لكن ما قيل عنها بعد وفاتها كان كذلك. إنها زوجة جدي أسعد الثالثة، عندما

تذكر "خزنة" فكأنك تذكر شـيئًا من زمن الحوريات الجميل التي تعجز الألسن عن وصف حسنهن ورقتهن. وقع جدي ابن السلطان في حبها عندما حضرت هي ورفيقاتها من "المعن" إلى مركز السلطنة لتقديم عروضهن في الغناء والرقص. عارض والده أمر زواجه منها، بسبب تدني أصل "المعن" الذين كانوا يشبهون في تصرفاتهم "الغجر"، وبعد إلحاح من ولده المتيم وافق، لكن بشروط عديدة أذعنت لها خزنة.

حجبها جدي عن رفيقاتها، ومنعها من التجوال في الأحياء العامة، كما كانت تفعل قبل زواجها. أحبها بجنون، ومع الحب تسللت الغيرة وكثرة الوشايات التي أغارت على كل شيء جميل. قيل إنه كان يشك في سلوكها، وقيل أشياء أخرى تقسم الجدة نعمى أنها أقاويل وشاة وفسقة. ماتت الجدة "خزنة" بحمى النفاس في حملها الثالث، الذي وضعته في مستشفيات عدن. حزن عليها الجد العاشق كثيرًا، واجتاحته نوبة اكتئاب حاد فرغه في زيارة قبرها حيث يسقيه لواعج قلبه المكلوم.

زُرْت قبرها الذي قيل إنه "تاج محل" عدن، فوجدت قبرًا مرتفعًا عن بقية القبور مُنْزويًا في ركن هادئ عن أقاويل الناس وشائعاتهم، تظلله أثلة خضراء، وتقف عليه الطيور مُغرّدة والقماري الهادلة، حمامة بيضاء بنت عشها في ظِلْة "خَزْنة"؛ هكذا أسمى الجيران قبرها وشجرته الظليلة.

كثيرًا ما ردد الناس رؤًى وقصصًا عن قبرها الذي يُضيء في الليل، وعن رؤيتها تمشي بين القبور في ضوء القمر، تحدث بعضهم أنه شاهدها مع

رفيقاتها ترقص في عرس في قرية مجاورة، وتكلمت الجدة نعمى، بمنطقها الصوفي الذي لا يخضع للعقل، أن الحجاج رأوا "خزنة" تطوف معهم حول البيت في مكة بعد ثلاث سنوات من موتها، وأنها كانت تحمل ابنها الذي ماتت يوم ولادته وهي تقول: "هذا ابني الذي حرمني من رؤيتك" وتبكي وتنوح.

تناقلت القصة الأفواه حتى وصلت إلى جدي الذي سارع إلى الحج عنها ومعه ذلك الولد، كان يحمله في المطاف ويصرخ: "هذا ابنك الذي جاء بك إلى هنا!"

❊ ❊ ❊

١٥

عدتُ إلى اللون الأبيض ورائحة الكلور والأنابيب والحقن. تغير الإطار فقط، ومهما كان الإطار فخمًا فإنه لا يخفف من الكآبة التي ارتبطت بذلك اللون الذي رافق إصابتي. ها نحن الآن في المستشفى الملكي في لندن مع مرافقَيّ "جون" و"أوسا".

أتأمل المشهد من كرسيي المتحرك فلا أجد إلا الألم يلفني طوال الطريق إلى الحجز في قسم الجروح لدى أستاذ "جون" المفضل، الدكتور جورج، الذي وعدني بإعادتي كما كنت، وإن سألتموني كيف كنت؟! فأنا لا أدري.

تركتُ الجدتين في المنزل مع العمة ليزا بعد أن توترت العلاقة بينهما مع ذكر جدي.

كان نقاشهما ليلة أمس عجيبًا، لا تفهم منه إلا كلمات معدودة: "كان يو"! وعبارات مشهورة: "حبيبي"، "حرام طلاق"، فالجدة نعمى تتعامل مع الحروف الإنجليزية وكأنها تطحنها في "الرّحى" فتخرج شأشأة كتهشم الزجاج، أما الجدة "جوانا" فلا تفهم من لغتها العربية إلا تأتأة طفل لا تدري أيطلب الطعام أم يريد الحمام.

ومع عدم فهمهما لبعضهما فقد كانتا تتبادلان العداء التقليدي بين أي "ضرتين" عربيتين.

العمة "ليزا"، التي لا تعرف ما تعني تلك الكلمة، جلست بينهما اليوم لتترجم لكل واحدة ما تقوله فيها الأخرى.

كانت تبتسم وهي تنظر إليهما وكأنهما عالمتان في اللاهوت والأديان، فقد حضرت أثناء دراستها الأكاديمية العديد من مناظراتهم، التي كانت تنتهي بالود والسلام مهما كانت الآراء متباينة.

أخبرتها بأن العداء هنا شخصي أكثر منه مبادئ أو اختلاف توجهات، ولن يكون ما رأيته هناك هو ما سيحدث هنا، فما نفع أن تترجمي قول الجدة نعمى في الجدة جوانا أنها كالفجل المرقط، وما نفع أن تعرف الجدة نعمى أن الجدة جوانا تصفها بالباذنجانة سيئة التغذية.

تركتها بينهما بإصرارها وابتسامتها الواثقة وهي تقول: "سترين كيف ستصبحان صديقتين عندما تفهم إحداهن الأخرى!"

أفكّر في حالهما وأنا أركض وراء الفحوصات التي أحسبها أحيانًا لا تنتهي، بل تتعقّد كلّما صعدتُ إلى أحد الممرّات الضيّقة أو رُصِصتُ مع بقيّة المرضى مثلي. لكن ما يؤلم حقًا هو تلك النظرة التي تخترقك عندما تكون بين الأصحّاء؛ أشعر أنّني أتضاءل، حتى لا يبقى فيَّ إلا إحساسٌ بنظراتهم تلسعني وتكسر ما تبقّى من عظامي تحت عجلاتها التي لا ترحم.

- تُحبين أن تكون بشرتكِ سمراء كبشرتي بعد التجميل أم حمراء كبشرة الثور جون؟!

تخرجني دعابات "أوسا" من جو المناحة ذاك، وتُريحني نظرته البسيطة

للحياة وكأنني كنت أرى نفسي في نظره سليمة.

لكن اليوم كانت نظرته، رغم دعابته، غريبة؛ هي النظرة ذاتها التي نظرت بها الجدة نعمى اليوم صباحًا؛ نظرة تحمل كلامًا لم أفهمه.

تركنا "جون" ليتابع إجراءات بعض الفحوصات، وبقيت أنا و" أوسا" في أحد الممرات ننتظر عودته قبل أن يقول أوسا:

- مستعدة لمغامرة؟!

شعرت بعدم الارتياح عندما دفع كرسيي إلى غرفة منزوية وأغلق الباب ثم استند عليه وقرّب وجهه مني، يبدو أنه رأى الرعب يرسم تفاصيله على وجهي.

قال وهو يرفع يديه مُستسلمًا:

- لست شريرًا!

ثم عادت نظرته الجادة:

- لكن هناك أشرار يتربصون بنا!

- مَنْ تقصد؟!

- جون وليزا وذلك الكائن الأبيض المرقط الذي تركناه في المنزل.

- الكائن الأبيض المرقط! هذا كلام الجدة نعمى فماذا تدبر؟!

هز رأسه بتوتر وهو يخفض صوته:

- الأمر كله خدعة، هذه عصابة، يريدون نهبنا أو تشليحك وبيع أعضائك في أحد المستشفيات التابعة لهم.

طالبته بالدليل.

- حدس الجدة نعمى وقلبها الصـوفي اللذَانِ قلما يجتمعان على خطأ.

- تقصـد التطير والغيرة بين الضـرتين قلما اجتمعتا على الجدة نعمى.

رفع أصابعه الطويلة ثم فرشها أمام وجهي:

- يا فتاة! نحن غرباء في بلد غريب، أنا لا أملك إلا لغة الكتب، والجدة نعمى لا تملك إلا غريزة الناقة وأنت لا تملكين إلا براءة ساذجة، فكيف نتعامل مع هذا الوضع؟!

انتظر مني الإجابة فلمّا لم أرد أجاب بلغته الشكسبيرية:

- بالشك الديكارتي!

- وإذا كان شكك مجرد وهم، ماذا سنقول لـ ليزا وجون؟!

- دعي التبرير على الجدة نُعمى ومنطقها السـفسـطائي، الآن يجب أن نُضـيّع جون، ونسـتقل المصـعد في الجهة المقابلة من المشـفى للهرب.

- والجدة نعمى؟!

- أرسلت لها سيارة أجرة تتوقف أمام المنزل، ستقلها إلى هنا.

- وأبي! هل تواصلت معه؟!

حك ذقنه بنفاد صبر ثم قال:

- بلدك مقلوب رأسًا على عقب، لم نتمكن من الاتصال بأبيك إلا لدقائق معدودة قبل سفرنا، كل ما قاله فيها أن من سيستقبلنا صديقه "جون" ووصفه بوصفين.

ومط "أوسا" شفتيه وجعد حاجبيه.

- وبماذا وصفه؟!

- بأنه طويل ولمّاح! فأين اللمّاح من الثور جون؟!

عندها سمعنا جون يهتف:

- أوسا! أين أنتما؟!

تلعثم أوسا وقال برجاء:

- نهرب؟!

كانت عيناي تقولان: "لا!"

جثا على ركبتيه بطريقة مسرحية ونكس رأسه بمسكنة وذلة:

- أنا عبد مأمور... هذه أوامر الجدة، وإن لم أنفذها ستحرقني حيًّا.

ثم رفع عينيه وحرّك رأسه:

- ترضين بذلك لأوسا المسكين!

هززت رأسي موافقة فأنا لا أحتمل منظر المسكنة المضحك هذا.

قفز أوسا وحرك كرسيي واندفع إلى الباب الذي ظهر منه "جون" بوجهه المكفهر.

صرخ أوسا:

- اخفضي رأسك، وتمسكي جيدًا.

تذكرت حينها عماد عندما كان يصرخ بي في السيارة المحترقة، وخشيت أن يصيب أوسا مثل ما أصاب عماد معي.

كنت أدعو الله كثيرًا وأنا أخفض رأسي، وأحشر رقبتي بين كتفي، وركبتي لامستا ذقني، أحسست أنني كرة آدمية ترتطم بجسد "جون" الذي صرخ وهو يقع على الأرض متوجعًا.

ثم اندفعنا إلى الأمام وانحرفنا إلى اليسار بعد أحد الممرات المنزوية. كان يعدو كرسيي المتحرك على السيرميك اللامع وروحي تنطلق في مكان آخر؛ في حواري صنعاء القديمة، على الأحجار المرصوفة في الأزقة التي تفوح منها رائحة الملوج والحلبة، أعدو مع صديقتي "سمر وبلقيس"، نندفع إلى السوق تسبقنا أحلامنا وشقاوة لحظاتنا المرحة، نشاكس الجزار "طحطوح" ونتقاتل معه على ما يبقى من فضلات الذبائح. نحن نهرب بها إلى القطط المتناثرة في حينا، وهو يخبأها لدجاجاته في المنزل. نساعد الخالة "دليلة" في بيع المشاقر، ونوزع ما يتبقى في آخر اليوم على المارين من الحي، أضع المشقري فوق أذني كالخالة، وتضع سمر مشقريها في عروة حجابها، وتبقيه بلقيس في يدها، فنبدو كثلاث زهرات تحدق بنفسها في كدر الغيوم، وتسمع همسها في بقايا الأمطار المتساقطة من الميازيب القديمة.

أخرجني أوسا من الماضي الجميل بصوته الخائف:

- أنتِ بخير؟!

شعرت بالألم فجأة فقلت مدارية:

- أنا بخير! والآن أين نذهب؟!

ردد عينيه في المكان وتباطأت سرعته:

- رسمت الطرق والممرات والمصاعد عند دخولنا إلى هنا لنتمكن من الهرب... لكن هذا المكان لم أره من قبل.

- أين الرسم الذي رسمته؟

حك رأسه وضحك بخجل:

- رسمتها في الخيال، لكن يبدو أن الخيال قد نسي هذا المكان.

الأبواب في الجهة اليُمنى عليها لوحات تدل على أنها مبيت للممرضات المناوبات. هنا باب بدون لوحة، فتحه "أوسا"، كان مخزنًا لأدوات التنظيف، وهنا باب آخر فتحته أنا فصرخت امرأة؛ أقفلت الباب قبل أن نرى شيئًا، وابتسمنا بلؤم وكأننا رأينا كل شيء كما في الأفلام.

تقدمنا في الممر الذي كان يزداد قتامة قبل أن تسد وجوهنا بلافتة تحذير، رجعنا من حيث أتينا، تتلمس عيوننا جدران الممر البيضاء بحثًا عن المصعد الذي أضاعه خيال أوسا.

توقفنا أمام تلك الأبواب المتراصة نهم بفتحها جميعًا وليصرخ من يصرخ، أدار "أوسا" مقبض أحد الأبواب، أتت صرخة مجلجلة لكن ليس من خلف الباب الذي لم يُفتح بعد بل من الممر، من "جون" الذي كان يركض

باتجاهنا وهو يعيد صرخته: "إنه اللعين!"

كان منظره بالكدمات في رأسه ويديه ومعه درزينة الممرضات التي تتبعه تثير الرعب في قلوب الشجعان فكيف بقلب "أوسا" الرقيق الذي لم يرَ شيئًا كهذا من قبل.

رفع يديه مستسلمًا وهمهم وهو ينظر نحوي بيأس: "لا مجال للمزيد من الهرب!"

ابتسم جون بوحشية وزاد من سرعته، لم أدرِ إلا و "أوسا" يتراجع بنا نحو الخلف، ويفتح باب أدوات التنظيف الذي كان يفتح إلى الخارج ويدفعه في وجه "جون" الذي صرخ صرخة مرعبة، ثم اندفعنا إلى الوراء واقتحمنا ما خلف لافتة التحذير، صدمتنا رائحة المكان النّفاذة قبل أن تغشى عيوننا ظلمة كالحة، اصطدم كرسيي بشيء حاد، فأضاء "أوسا" مصباح هاتفه ورأينا ما نحن فيه من بلاء؛ كنا على قمة من الأخشاب والأسلاك المتشابكة التي تهدد بالانهيار أو الاشتعال مع كل خطوة.

كان ضوء الهاتف الضئيل يضيء أماكن من السقف الممتلئ بعلامات الخطر وكتابات التحذير: "المبنى على وشك السقوط"، "إن دخلت هنا بالخطأ فلا تتحرك"، "المكان قابل للاشتعال فالأسلاك المتهالكة لا زالت تحمل تيارًا كهربائيًا"، "براميل الطلاء لا تلمسها فهي تدعم الأعمدة المائلة".

- أين وقعنا الآن؟!

- هذا أشد مما هربنا منه!

نفخت واستندت بجسدي إلى الخلف ونظرت إلى السقف المضاء بالرعب، تحول "أوسا" بهاتفه إلى الأمام، ركزت نظري حيث أضاء، تحرك كرسيي إلى الأمام فأمسك به "أوسا" وشده إلى الخلف، سقط برميل طلاء من الظلام وحط أمامي، تبعته أصوات تقطيع وشرارات من الأسلاك كانت تلتهب في العتمة كعيون وحوش مفترسة.

أدخنة تصاعدت، دوت صفارات الإنذار، نظام الإطفاء الحساس بدأ يعمل فانهمرت المياه والبخار من الأعلى وأضيئت المصابيح الحمراء، وبين الرذاذ والدخان والبخار ظهرت رؤوس رجال الإنقاذ بخوذهم المميزة من النافذة ومن الممر الذي عبرنا منه، كانوا دهشين لرؤيتنا هنا، وكانت فرحتنا أشد من دهشتهم.

تسلق أحدهم النافذة القريبة، مد حِبَالًا لتوصل لوحًا خشبيا إلينا، وضعه أوسا في المنطقة المتهالكة من تلك الأرضية، مشى عليها رجل الإنقاذ، كانت تهتز تحت بدنه المكتنز العملاق، لكنه بدا في تلك اللحظة كـ "سوبر مان" لا تصرعه الأهوال ولا تخيفه الأماكن المرتفعة.

حملني وكرسيي وكأنه يحمل ريشة، عدنا على اللوح الخشبي، وضعني على الأرض الصُلبة، صفق له أصدقاؤه، وهتفوا: "مرحى جون!"

❊ ❊ ❊

١٦

لا زلت في المستشفى كما في كل مرة، لكن هذه المرة لست وحدي؛ العائلة بعربها وعجمها وأحباشها هنا. أكثر من تضرر هو "جون" المسكين، أراه برأسه الملفوفة بالضمادات يدور حول أسرة المرضى لمتابعتهم، ولا ينسى أن يطمئن في كل دورة على ابنة خاله. يسألني إن كنت أحتاج شيئًا، يُمسك الورقة المُعلّقة على السرير، يُمعن فيها النظر ثم يقول بصوت متفائل: "هناك تحسّن!"

ينظر إلى الساعة خلفه، وقت تغيير بعض الضمادات، رأيته ينزع قفازاته، ويعقم يديه، انكمشت وتوترت، فتوقف، أعاد قفازاته، ونادى على الممرضة التي قامت بالأمر، ثم ذهب ليواصل عمله بين الأسرة المُتراصة والأقسام المتعددة حيث لا ينتهي العمل.

يعجبني في جون أنه يحترم قناعاتي ولا يحاول تغييرها تحت وطأة ما أنا فيه من وضع خاص، بخلاف أوسا الذي يتسلل من قسم الجروح الطفيفة إلى قسم الحروق حيث أتواجد، يدخل عكازه، ثم يطل برأسه المضمّد، فهو الآخر تلقى ضربات موجعة من "جون" بعد أن تم إنقاذنا.

يبتسم إن وجدني أكتب في دفتره الذي أهداني، ويعبس إن رآني أقرأ في كتب "جون". يتصادف أن يلتقيا هنا، يتبادلان سلامًا فاترًا، يعقبه هدوء حذر، لا

يلبث أن يتحول إلى ضحكات صاخبة لدعابات "أوسا" التي تُقابل بأريحية "جون" وطيب طبعه.

تتسرب تلك الضحكات بين المرضى وكأنها إكسير حياة يجترح الابتسامة من شفاه لم تعرف الفرح؛ فنحن في أقتم أقسام المستشفى وأشدها حزنًا؛ "قسم الحروق". هنا الليل يتحول إلى مأتم، لوعات المتألمين المتشنجة تجعل المأساة تتجدد مع كل مريض يقدم، آلامٌ بشعة تحيي فيك تلك المناظر كلما تذكرت وجهًا مطموسًا أو عينين سائحتين!

أوشك على البكاء كلما تذكرت وجه الطفل الذي احترقت أطرافه ولم يبقَ من جسده إلّا وجه جميل يضحك. لم يزرني الحزن فقط، بل أخذتني سعادة الامتنان معها؛ فأنت تمتن في البلاء إن رأيت من هم أشد بلاء منك وأكثر بؤسًا. وهكذا كنتُ في حالتي تلك؛ أنظر إلى أطرافي السليمة، إلى وجهي الذي لم تمسه النار، إلى الندوب في أطرافي التي لم أرها اليوم إلا كنجومٍ في سديم السماء!

أن تتأقلم مع ألمك هذا لون من الشفاء؛ لكن أن تصبح ممتنًا لوجوده، فهنا تبدو الدنيا أرحب من أن تكون للونين فقط.

تشع تلك الألوان وتجعل من حولي يحبونني، ويتآلفون لأجلي. كنت كأني بمرضي أنهي أي مشكلة قبل أن تبدأ، أستجلب الحب لا الشفقة، الجبر لا مجرد الرَّحمة.

بينما كنت مستغرقة في الكتابة، كانت الجدتان تتهاديان في مشيتهما نحو

سـريري؛ الجدة نُعمى تُمسـك بكتف الجدة جوانا التي بدت اليوم كسـحابة بيضاء تسند غمامة عملاقة.

هما هنا يتلقيان العلاج أيضًا، تعاركتا بمجرد ترك العمة ليزا لهما، كان عِراكًا بالأيدي والعُكازات، لم تتوقفا إلا عندما طرق السـائق الذي بعثه "أوسـا" الباب، فوجدهما متكورتين على بعضـهما يسـمع تأوهاتهما المكتومة، فحملهما معه إلى هنا.

أن تغطس في غمامة من المشـاعر الحنونة أنت في كنف جدة، فكيف إن كانتا جدتين؟!

مختلفتين طبيعة وشـكلًا وخلقا؛ لكنهما تحبانني. أشـعر بقطرات الندى تتسلل من عين الجدة جوانا فتغسل سقمي، أتكئ على خشونة طباع الجدة نعمى لأعبر مرضي.

تغادران ويغادرني الدفء، أشـعر بالبرودة تتمدد على كل شـيء، الأبيض يحيطني يدفنني في العتمة، أتنفس بصعوبة، وتملأني الكآبة.

- أكره اللون الأبيض!

قلتها عندما أتى "أوسا" ليودعني هو الآخر؛ فقد أتم علاجه.

تأملني طويلًا قبل أن يقول:

- ما رأيك أن نهرب من هنا!

ضحك كلانا مع تذكر هروبنا من "جون" قبل أيام.

مسحت دموع الحزن والضحك وقلت بقلب راجٍ:

- زرني كل يوم!

كنت أحتاج إليه في محنتي تلك التي لا أرى فيها أحدًا أتقاسم معه أي شيء. الإنسانية المجردة التي أتشاركها مع الأطباء هنا لا تجدي مع عمق الألم والجروح التي في جسدي المحترق، أحتاج إلى صلات أعماق، إلى تفاصيل دقيقة تحفني وتدفع عني الوهن. لم أجد تلك الصلات إلا في "أوسا"؛ السن والدِّين واللسان والاهتمامات والفكاهة، كانت تلك التفاصيل هي من جعلته وحده يخفف عني غربة صنعتها الحرب والإصابة.

نظر إليّ طويلًا قبل أن يُعطيني القلم ويقول:

- سأعاهدك بطريقة الفرسان أيتها الملكة.

ضحكت ووضعت القلم:

- دعك من الأدب الآن فلستُ ملكة ولست فارِسًا!

كان "أوسا" مولع بالأدب الغربي، قرأ شكسبير وأعاد مسرحياته مرارًا، والتهم أوسكار وايلد، وكثيرا ما حلق في أحلام جول فيرن التي أصبحت حقائق.

ناولني القلم من جديد مُصرًّا:

- لابد أن نفعل ذلك حتى يكون الأمر مُقَدسًا.

ضربت بالقلم على كتفه كما أمرني وقلت:

- تتعهد بحمايتي من الحزن ما حييت؟!

ردد بصوت عميق وكأنه قادم من إحدى الروايات:

- أتعهد بذلك سيدتي.

كان في حركاته بعد ذلك كأنه فارس لا يشـك في فروسـيته، فارس تدرب طويلًا على الفروسية في أدغال نفسه المتطلبة للكمال والمُعمّدة بالشهامة.

لم يتركني ذلك اليوم حتى وقت متأخر، اضـطرت المُمرِضـات لاسـتدعاء الحرس لإخراجه. كان يتشبث بالأسرة ويرتطم بالجدران ويقول بمسرحية جعلت الحراس يخففون عنه عند جره من الغرفة: "لن أترك ملكتي"!

كان دائم الحضـور بعدها، يطيل الجلوس معي، يحكي عن بلاده البعيدة، وعن علاقة اسـمه بحضـارة قديمة كانت لها جذورٌ يومًا ما في جنوب اليمن، مملكة "أوسان".

كانت سـيطرة تلك المملكة تمتد إلى السـواحل الإفريقية المقابلة لخليج عدن، بل امتدت تلك في أوج قوة المملكة إلى سـواحل أخرى فيما عُرف بعد ذلك بالبحار الأوسانية.

في مراحل ضعف مملكة أوسان هاجمها ملك سبأ كرب إيل وتر، وأجلاهم عن جنوب الجزيرة، عبرت تلك القبائل البحر الأحمر إلى شـرق إفريقيا؛ قبائل عفار تلك القبائل الصلبة الشكيمة العالمة بالبحر وأسرار رياحه، التي اسـتقرت في تلك المنطقة وشـكلت أول تجمع عربي، وأول مملكة عربية في إفريقيا وعاصمتها "أَوسا".

هرش رأسه وغمغم:

- لا أحب الحديث عن الماضـي إلّا عندما يتعلق الأمر بتلك المملكة التي اشتق اسمي منها.

كنت أتأمل وجهه البرونزي وهو يلمع على أضواء النيون المنبعثة من مصابيح المستشفى الحديثة، خيل إليّ في تلك اللحظة مقدار ما مر من الزمن وكأنه تكوّر بين عينيه؛ منذ أن خرج الأوسانيون يخوضون البحر، وتتقاذفهم الأمواج حتى استقروا في صحراء تلك الأرض البِكر، كيف امتد النسل بين تلك البلدان، كيف انتقلت الممالك بين دماء باردة وحارة!

- تعجبين من تقارب عروقنا البشرية؟

أرخيت بصري الذي كان فجًا، وقلت وأنا أحرِّك يدي بتوتر لاحظه:

- لم أقصد التعجب، عجبتُ من توسع مملكة أوسان إلى ما وراء البحر.

أصلح من جلسته وحرّك يده كمعلم أتقن التدريس:

- لماذا تعجبين؟! إن كنتِ ستعجبين فاعجبي ممن يظن أن الفراعنة هم من تلك المملكة التي كانت يومًا ما قوية وقررت غزو واستعمار مناطق جديدة كما تفعل إمريكا اليوم.

- أنت جاد؟ أم أنك تجاملني لأنني أنتسب إلى تلك المملكة؟!

ضحك حتى عاد رأسه إلى الخلف، ثم ابتسم بخبث وهو يقترب مني:

- ألم أقل لك أنني أنتسب أيضًا لتلك المملكة!

ثم لوى شفتيه وبدت في عينه نظرة تأمل باردة:

- وما نفع ذلك الانتساب؟ لم يرفعنا من الحضيض الذي نحن فيه.

ورأيت في وجهه تلك العبرة السائحة التي تبحث عن تعليل لانحدارنا غير المفهوم إلى درجات سحيقة، نعيش في الماضي؛ نتكئ عليه في زمن غير زمنه ومكان ليس له، ونحاول اقتفاء أثره ورسم معالمه في عالم لا يشبهه.

نفض رأسه ووضع ساقًا على ساق مغيرًا دفة الحديث البائس عن مشاكلنا التي لا تنتهي إلى حديث آخر:

- إن كنا نتشارك في النسب، فما رأيك أن نتشارك في النسل أيضًا؟

نظرت إلى وجهه، دققت في نبرة صوته الجادة الهازلة، وقلت بتشوش.

- كيف قلت؟!

- لم تفهمي عليّ؟! وأنا الذي ظننت أنك تبادلينني الشعور نفسه!

قلت بتوتر لاحظه:

- أوسا! لماذا تلوك الكلام بهذه الطريقة غير المفهومة، أشعر أن رأسي يتشقلب، أخبرني مباشرة بما تريد.

لاح الضيق في وجهه، وهمَّ أن يقذف جملته في وجهي الملفوف بألف حاجز. دخلت الممرضة وهو لا يزال يبحث عن الكلمات في داخله، يرتبها ربما، ويشذبها بما يستطيع من بلاغة شكسبيرية أو عنترية. طلبتْ منه الخروج، لم يتمهل كما في كل مرة، رأيت قفاه يهرول خلف مريولها الأبيض، لم يتشبث بالمقاعد، ولا التفت مودعًا. هرب من مواصلة البوح، أو ندم على ذلك، رأى أنه يجازف، أو تذكر أنني لم أعد أصلح لشيء. كانت الأفكار تمور في رأسي، فلم أنم ليلتها، بقيتُ في شكوكي أغرق، أحاول

التماسك، وعدم الانهيار أمام الألم والقهر والظلم الذي أراني أسيرة لأنيابه.
ومع انبلاج الفجر توقفت عن البحث ورميت ثقل رأسي في سجدة، أطلتها بامتداد الحزن الذي يحتويني، سَلْسَلْتُ فيها أفكاري وأويت فيها إلى التسليم، إلى إلقاء الألم بعيدًا عن جسدي الهزيل، وتركه لقدرة الله.
كنت أتأمل أضواء شمس لندن الباهتة من خلف البنايات، أرى في الخارج حديقة المستشفى، الأزهار والأشجار الجميلة تتلهف لتلك الإشراقة الهزيلة الآتية من الشرق.
دفعت مقعدي المتحرك وخرجت إلى هناك بمفردي، لم أطلب مساعدة من الممرضة التي لم تأتِ بعد ولا انتظرت مجيء أوسا لأخذي.
البرودة صفعتني بمجرد أن مشيت على بلاط الأرضية اللامع، ولمست يدي الدربزين الحديدي المتصلب، الألم عاودني في أطرافي الملفوفة بألف خرقة، رحلة عذاب طويلة كنت أدفع بجسدي لخوضها لأثبت لنفسي أنني أستطيع الصمود حتى الوصول.
تصل إلى الأزهار الذابلة زخات الضوء، فترتفع وتتفتح، تلتهم الحرارة البرودة المتيبسة لأطرافي، أشعر بالدفء يسري في جسدي، أحرك أصابعي، أضغط على ذلك الشيء الذي حملته معي من الداخل، أرفعه فوق الملاءة، أنشر أوراقه في الشمس، وأبدأ القراءة.
لم يكن كتابًا عاديًا، كان معجزة، أقلب صفحاته فأزداد قوة، وأجد نفسي بين كلماته، كنت أحاول أن أرتل آياته كما تعلمت في مسجد الحي، أحاول أن

أستعيد تلك الأصوات الندية، تلك الحلقات الوضيئة، تلك الحياة الهادئة النقية التي كنت فيها، أفتح فمي، تخرج الكلمات مُلتوية، ثم تستقيم وتنساب، ويصبح التوقف عن ذلك الهديل كالتوقف عن التنفس.

كنت أضمد جروحي النفسية بتلك الآيات، ألوان من التعافي غير المرئي تلف روحي، وتهدي قلبي.

توقفت عندما رأيتها قادمة تهرول وخلفها أربع ممرضات وهو، دفعت كرسيي إلى الداخل وهي تشخر بلغتها الأم كلمات نابية لم أفهم منها إلا تلك الركلة في مؤخرة مقعدي. قال وهو يطوّق كرسيي بيديه:

- قلقنا عليكِ! بحثنا عنك في كل مكان وأنتِ هنا... كيف خرجت؟ أوسا فعل ذلك قبل أن يغادر؟

- أوسا غادر؟! إلى أين؟!

- لم يخبركِ؟! عاد إلى بلاده فقد بدأت دراسته الجامعية...

قاطعته بسرعة مبرئة أوسا من إثم التخلي عني ولأقنع نفسي أنه لم يتركني:

- كان يريد أن يخبرني البارحة لكنه لم يجسر، لم يجد القوة ليودعني، ففضل الهرب، أكان ظله الذي رأيته أمام البوابة حقيقيًا؟!

- رأته إحدى الممرضات يقف هناك أيضًا.

- لم أكن أحلم إذًا.

ثم تذكرت أنني لن أرى أوسا ثانية، وغبت في مأتم الحزن، حتى شعرت بيد جون الباردة تلامس كفي.

قلت بفزع وكأنني استفقت من حلم مزعج:

- ماذا؟!

ابتسم مطمئنًا:

- يبدو أنك لم تكوني معي، سألتك عن هذا الكتاب، فلم تجيبي، دفعني تشبثك به لِأن أتفحصه.

ناولته المصحف.

- مصحف! رأيت مصاحف كثيرة، لكن شكل هذا المصحف مختلف.

- نعم، فهو مصحف جدي أسعد، الذي صُنِع خصيصًا له.

هز كتفيه وقال بزهو:

- إذًا هو ميراث جدي أنا أيضًا.

لم أرد، بقيت أفكر كيف يمكن أن يكون هذا! وما علاقة هذا الرجل الأبيض البشرة الأصهب الشعر، الأخضر العينين، الأجنبي اللكنة بجدي الحميري "أسعد"! كأنني لم أعد أفهم أي ارتباط أسود أو أبيض بعرق جدي الذي احتكرته لي وحدي، وقطعت كل صلاته الغريبة والشاذة التي لا أرغب في تخيلها حتى بعد ما عشته مع أوسا.

تدارك مصححًا وهو يرى استنكاري:

- لسنا غرباء عن بعضنا كما تظنين، نحن أحفاد جدة واحدة، وإن اختلف أجدادنا.

ومد لي المصـــحف، فالتقطته بيدي المُحترِقة، جاورت يدي يده البضـــة البيضـــاء، يد إنســـانية إلى جوار عظام بائدة محترقة لحميرية الأصـــل وعربية النســـب. ما نفع كل تلك الألقاب إن كنتَ تفقد روحك، وتجدها غريبة بين بني البشر بجسدك المشوه؟! أشعر بالتشظي في الشكل والكلام والأفكار، فتاة وحيدة مريضة في بلاد غريبة، أي غربة تفوق ما أشعر به وما أجده؟ حتى أوسا الذي ألفتُ روحه أصبح من الماضي.

- لســـتِ غريبة عني، تذكري أنك ابنة خالي، والخال والد كما تقولون في اليمن.

أكان يجيب عما يُراودني من شـــعور، ثم كيف لفظ ذلك المثل اليمني بتلك اللكنة البدوية، وكأنه قد لفظها مرارًا.

لاحظ دهشـــتي فعقب باقتضـــاب ونحن نقترب من قســـم الحروق لنزع الضمادات:

- ننزع الضمادات ثم سيكون لنا حديثٌ آخر.

ثم ابتسم:

- اليوم ستكونين مختلفة.

❊ ❊ ❊

١٧

لن تصدقوا أعينكم إن رأيتموني اليوم؛ نُزِعتْ الضمادات عن ساعديِّ نهائيًا، ورأيت لأول مرة البشرة البيضاء بدلًا عن الجلد المُحترق المتقشر، بكيت عند رؤية ذلك، وكأنني أرى حُلمًا استحال أن يكون واقعًا، لكنه حصل اليوم.

غدًا سأتم نزع ضمادات الجزء السفلي ومنطقة الرقبة، وسأخضع أخيرًا لعملية تجميل لكفي، تخليت عن استخدام الكرسي المُتحرِّك، وبت أستند على عكاز خشبي خفيف كالذي تحمله الجدة نُعمى.

لم أعد في القسم العام للحروق بل انتقلت بعد أن أصبحت كائنًا بشريًا شبه مكتمل إلى غرفة خاصة، كانت في الأصل مكتبًا لجون، فوهبها لي حتى أتم علاجي.

إنها غرفة مدهشة، أثاثها بسيط وأنيق، أريكة صغيرة، مكتبة متوسطة، مكتب صغير، تتوسطه مزهرية تحمل أزهار الياسمين، وإلى جوارها كومة أوراق ودفتر مفكرات، وقلم وكتاب طبي.

في أحد الأركان توجد خزانة زجاجية، فيها غلاية شاي، وأكواب خزفية، وطبق من البلاستيك، ومنفضة سجائر.

وفي الركن الآخر توجد ثلاجة صغيرة، فيها بعض الأطعمة المُعلبة، والكثير

من الفواكه الطازجة التي وفرتها لي الجدتان بمعية العمة ليزا.

لم أهتم بشيء قدر اهتمامي بالمكتبة التي حوت روايات عربية، وكتب مترجمة لكبار الكُتّاب الأجانب.

رشح لي جون كتاب "الإنسان يبحث عن المعنى"، للدكتور فكتور فرانكل، يحكي فيه تجربة سجنه في معتقلات النازيين في الأربعينات والتي يبدأها بقوله: "هذه القصة لا تهتم كثيرًا بمعاناة العظماء، ولكنها تهتم بالتضحيات والمحن والموت لجيش ضخم من الضحايا غير المعروفين وغير المسجلين."

إنها تتحدث عني، لا عن الزعيم أو القائد أو السياسي المحنك، تتحدث عن المواطن الذي لا يملك حولًا ولا قوة، لا ناقة له ولا جمل في هذه المعمعة التي لم نرَ منها إلا الخراب... نبحث عن المعنى في معاناة تمتد ونحسبها إلى الأبد.

كنت أداول في القراءة بين صفحات من هذا الكتاب وقراءة القرآن والتأمل في تأملات جدي التي تستنطق المدفون وراء الحروف في واقع مضطرب.

("والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض".

إنني في شيخوختي الداكنة أسمع أصوات الرصاص من بلدي تهز أديس أبابا حيث أعيش، وتحيل حياتنا إلى حرب وثأر، الدماء لا معنى لها إلّا الحقد إن لم تُسْفَك في فداء أو دفاع.)

كان جدي يفكر بألم وهو يقرأ هذه الآية التي تتحدث عن الولاية بين

المؤمنين، بحرقة الباحث عن الشيء المفقود في ألم يتضخم ويكتسح كل ذرة إيمان، في إصلاح حال شعب مساحاته الملطخة بالدم تتسع يومًا إثر يوم.

كأنه كان ينظر من نافذة الاغتراب إلى نيران حروب لم تخمد إلا على جمرات ثأر حاقد، لم ينسَ أحد ما جرته حروب المناطق الوسطى في السبعينات، ولا الانقلاب الأسود على سالمين في الجنوب وقبله قتل الحمدي في الشمال، والدماء التي شقت الصف في ١٣ يناير كانت السيل الذي دفع الجميع إلى توحد متسرع انتهى بحرب ٩٤.

نتحدث عن أرقام لتواريخ حفرتها مناجل المتقاتلين، سقتها بالأحقاد التي لا تندمل، بل تتكاثر وتتفرع وتتغضن ملامحها وتزداد بشاعة مع تقادم الصلح الذي لم نره إلّا في الشاشات ولا شيء في الواقع.

طرقٌ على الباب خفيض أخرجني من دوامات التأمل التي تفتح أبوابًا لتأملات وآلام، فتحت الباب بعد أن أرخيت البرقع على وجهي، كان جون والممرضة ريتا. هكذا عدت إلى لباسي قبل أن أكون نزيلة مشفى.

كان موعد تناول الدواء، والاطمئنان على ضمادات كفي.

- ارفعي يدك.
- حركيها الآن.
- ريتا، ضعي مادة معقمة في يديك.
- إن شعرت بأي حكة أخبري ريتا لتقوم باللازم.

ريتا ممرضة أنيقة الملبس، جميلة الطلة، تضع وشاحًا على رأسها يسقط حينا فيبدو شعرها الأسود اللامع، فتعيده وتبقي خصلاتها الحريرية تتدلى من هنا وهناك.

رغم دقة ريتا في العمل وانضباطها الواضح لم يكن جون راضٍ عنها:

- لا زالت متدربة.

أوقفني بهذه الكلمة عن مواصلة الحديث عن مزاياها.

عدتُ إلى كتابي:

- مهتمة بك، لكنك لا تفهم!

كان يرتب الأدوية ويكتب تقريري الذي سيذهب إلى الطبيب غدًا.

- وإن كانت، فأنا لست كذلك.

رفعت رأسي، ووقعت عيناي في عينيه اللتين تكلمتا بكلام كثير هزني وأغرقني في الحيرة. خفضت بصري، وعدت بلا وعي إلى صفحة الكتاب:

- لماذا؟

- ليست من أهوى.

ابتسمت معابثة:

- إذًا تحب إحداهن.

عاد إلى أوراقه، كان يخط فيها بلا توقف، يكتب تقريرًا من ألف صفحة عن ألف بلية يحملها جسدي المتشظي، المرقع جلده بكل جلد، المشقق في كل شبر.

- وهل الحب حرام عندكم؟!

كنت أحاول ألّا أنحرف بكلامه إلى مكان لن يؤسس لشيء، إلى نقطة بعيدة لمعت في عينيه، ولم أرها في قلبي، حلم مجنون لا أدري لِمَ يركب جون يخته، ويعبر به البحر العاصف الذي لم ينجُ منه أحد.

- لا!

- إذًا أنتِ تحبين؟

- ليس حرامًا، وليس واجبًا كذلك.

- يعني أنك لا تحبين، لماذا؟

شعرت أن الحوار يتشعب، ويصل إلى مناطق حساسة لا أحب أن يخوض فيها أحد، ربما لو كان أوسا لنهرته عن النبش في تفاصيل لا تعنيه، لكن جون! طباعه الرزينة المنضبطة تجعلني أتريث في التعامل معه وكأنني أجتاز بحيرة ممتلئة بالصخور.

- لأنني مخطوبة.

ورفعت يدي الجريحة بأصابعها السوداء وأظفارها المتساقطة وخاتم الخطبة المتوهج كنجمة في لجة مظلمة.

نظر في يدي، ثم أرخى كتفيه، نظر في الأرض مفكرًا، عاد لكتابة التقرير ثم توقف، تأملني.

- ألم يمت؟!

- لم نتحقق من ذلك.

كنت في هذه الأثناء أبكي من دون وعي، الدموع تنساب على لثامي الأسود، وتغرق عيني المتألمة، كنت أعود برحلة خرافية إلى مشـــاهد الحريق والدم والألم، أتنفس الحرب في بقعة تضـــج بالكلور والمعقمات الطبية، أراه في الدخان يصارع لإنقاذي، يرميني بعيدًا ويحترق هو.

توقف للحظة عن الكتابة، أطرق مليًا ثم قال بتمهل:

- أعتذر! لم أقصد نكء جراحك.

وانسـحب ليتركني وحدي أعارك الذكريات التي انفتحت أبوابها السـوداء في وجهي.

❊ ❊ ❊

١٨

{ولا تفسـدوا في الأرض بعد إصـلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين}

(الإنسـان مجبول على الخوف والطمع، نخاف من المسـتقبل، ونطمع فيه، فإن لم نخف أفسـدنا، وإن لم نطمع يئسـنا فبارت الأرض وخربت. الطمع والخوف هما الأمل، من لا يأمل في الغد يمت ويشقى)

أغلقت مصـحف جدي، أطفأت المصـباح الكهربائي، واسـتندت على الأريكة وأنا أبتعد عن سـريري، أزحت السـتارة عن النافذة، ورأيت لندن المولودة في الأضواء تتبختر بين الأبراج العالية والمسطحات اللامعة.

لم أستطع النظر إلى السماء التي بدت كتلة من العدم تتمدد في الأعلى حيث الظلام دامس مخيف.

ظلام يلفني مع نافذتي وتبقى لندن أمامي ترقص في الضـوء، أمد لها يدي، أضـعها على زجاج النافذة، أرى الألوان السـوداء لجلد كفي المحترق الذي لم يستطع الدكتور جورج إعادته كما كان:

- جروحها من الدرجة الثالثة، لا تُمحى مع الزمن بل تحتاج إلى تدخل جراحي، وربما زراعة جلد جديد.

حركتها أمامي وأنا أنظر في سوادها:

- أليست كبقية جسدي؟!

- تشبثك بمقعد السيارة كان سببًا في احتراق كفيك بصورة أكبر من جسدك.

هكذا هي الدنيا كلما تشبثت بها أحرقتك، كلما أردت منها الحياة وهبتك الموت، أو تركتك ميتًا بين الأحياء.

تتبدل الألوان في الخارج، أفتح زجاج النافذة، يدخل هواء بارد ببطء، كنت أتمنى هبة ريح عاتية تطير من عقلي ما أجده من حزن، تذكرني بأشياء قديمة عن نافذة كهذه في مكان ما كانت تهبني الأمل، أرى منها الجبال والغمام والحمام، وأصنع معجزاتي في البعيد حيث لا تصل لها أيادي العابثين بالأحلام.

أفلتُ الستارة من يدي فحلَّ الظلام، البرودة تسري في أركاني، لم أشعر بالوحدة من قبل هنا. كنت دائمة الطواف على غرف الأطباء، تعكف الممرضات معي لإعطائي جرعات دواء مؤلم يشيب منه شعري، أو أبقى في السرير مع الألم حتى الصباح، لا أفكر في شيء إلا تلك الأوجاع التي لا يطيقها أحد، أما اليوم، بعد أن مرت ثلاثة أشهر على مجيئي، فقد أتممت علاجي، وبقيتُ عرجاء محترقة اليدين، بعد أن عجز الأطباء عن إصلاح ما أفسدته الحرب.

منذ آخر حديث لي مع جون بقيت أتحاشى لقاءه، وظل هو يتحاشاني، لا يمر إلّا ليهبني بعض الكلام البارد عن العمة ليزا والجدة جوانا، أما الجدة

نُعمى فقد غادرت لندن وعادت إلى إثيوبيا بعد إصـابتها بنزلة برد حادة لم يألفها جسدها الأسمر الحار.

أتلقى اتصـالات شـبه يومية ممن أعرف وممن لا أعرف من العمات والخالات وبناتهن وأبنائهن، يخبرونني عن أحوالهم، ويسـألونني عن أحوالي، أسـألهم عن الحرب، وعن شـيء كنت أدعوه وطنًا واليوم أصـبح فقدًا.

اتصلت البارحة العمة لينا أم أوسا، سُعِدتُ لسماعِ صوتها وكلامها العابث، سـألتني عن مرضـي بدقة مَن كان مرافقًا لي، فقد أخبرها أوسـا بكل شـيء، تمنت لي الشفاء، فسمعت همسًا لأحد بجوارها، ضحكتْ قبل أن تُردف: " ويرسل لك محباته."

– من يرسل لي ذلك؟

ضحكت مرة أخرى وقالت مصححة:

– أنا... أنا والجدة نعمى.

لم أعد أتطلع إلى أوسـا أو إلى غير أوسـا بعد أن نهرتني الجدة نُعمى عن مجرد التفكير به. أصبح الاقتراب منه ليس ممكنًا بعد أن ظهرت من ارتضتها له مخططات الجدة نعمى التي لم تكتفِ بهندسـة حياتنا بل هي تهندس حياة جميع من تتصل بهم بصلات قرابة ولو كانت بعيدة.

بت أتطلع لشـيء واحد فقط؛ الموت، تجري في قلبي لذة غريبة إن مر أمامي ذكره، شهوة الاختفاء لا الظهور كانت تسيطر على وجودي الناقص.

أشعر بقبضة حديدية تمسك صدري، تخنق أنفاسي. أهذا هو الموت الذي أبحث عنه؟ أتمناه فيأتي سريعًا، أتلوى من الألم، أرفس بقدمي في الأرض، وأسند ظهري على الجدار البارد للغرفة، أعب من الهواء، أعب وأعب وأحاول أن أصرخ فلا أستطيع، يخرج صوتٌ أشبه بالسعال منه بالصراخ.

- لماذا تصرخين؟!

أدور بعيني بحثًا عن المتكلم، تلمع عيناه في الظلام:

- لماذا تصرخين؟! ألا تتمنين الموت؟

ألهث، تخرج حروفي متكسرة، لا أجد الكلمات التي تختبئ في مكان بعيد:

-مـن أنـــت؟

يبتسم فتبدو عيناه أكثر بشاعة:

- لم تعرفيني؟ ألم تكوني معي عندما أخذني الموت؟

أغمض عينيه وكأنه يتذكر من أين أتى:

-أهاا... كنتُ ملثمًا فلم تريني.

- لماذا أتيت؟

ضحك ضحكة متوحشة وانقبضت عيناه بشدة فظهرت التجاعيد المحترقة في وجهه:

- لآخذكِ معي!

اقترب مني أكثر، أحسست بجسده المحترق يتمدد على جسدي، يداه تكتم أنفاسي في صدري، فحيح فمه العالي وهو يقترب من وجهي، تلفح أنفي

أنفاسه المحترقة، سائل لزج يتدفق على رقبتي، أحاول دفعه بعيدًا فلا أستطيع، تلتصق عيناه بعينيّ، أرى الألم الذي مر والذي هو قادم، أرفس تحته بجسد مصفد، تتعانق أصابعي المحترقة بأصابعه الميتة. هنا أتقاسم معه الموت فلا حياة في جلدي المحترق... يمر شريط حياتي، تتدفق الذكريات، أضيف إليها الأحلام، وأضعها في صندوق، ألقيه في اليم ليلتقطه من كان، فلم أعد أهتم، لم أعد أهتم، لم أعد أهتم!

شيء انفتح أمامي، الهواء يتدفق بسرعة إلى رئتي، أشعر بألم في صدري، الضوء ينتشر حولي، هل وصلت إلى الضفة الأخرى؟! هناك من يناديني، أفتح عيني، لا أجد أحدًا، أعود إلى الإغفاء، الصوت يعود، يقترب أكثر، يهزني، أفتح عيني من جديد، عينان خضراوان وبشرة بيضاء... من هذا؟! يمسك كتفي ويهزني، يحسبني أهذي، ماذا تريد؟! أين أنا؟! لا أسمع صوته، أراه يفتح فاهه صارخًا، أعود إلى المكان الجميل الذي أتيت منه، وقبل أن أغرق أشعر بشيء بارد ينسكب على رأسي.

❊ ❊ ❊

١٩

يطل برأسه من الباب، يبتسم بحنو لم آلفه منه منذ آخر حديث، تدخل بعده العمة ليزا والجدة جوانا في زيارة غير متوقعة، أنظر إليه باستياء؛ أتراه أخبرهم بما جرى معي ليلة البارحة؟! وجدني أنتحب على أرضية الغرفة، وأهذي بكلمات غير مفهومة.

انتهت الزيارة بعد أن امتلأت غرفتي بأزهار ملونة أحضرتها العمة ووزعتها بطريقة بديعة، بقيت وردة حمراء قانية تتمدد على السرير إلى جواري، وحيدة لا صديق لها ولا رفيق، تئن من الألم ولا يسمعها أحد.

الملل يغلف حياة المرضى، يتنفسون الكآبة في الملاءات البيضاء والأسرة الباردة ووجوه الأطباء الجامدة... آكل أظفاري المتفحمة همًا وأنا أفكر بما سأفعل حتى تحين جلسة الطبيب في الساعة السابعة مساء؟! أقرأ وأقرأ وأقرأ... ثم ماذا؟! سأبقى هكذا إلى نهاية العمر؟!

الطرق الخفيض للباب يخرجني كما في كل مرة من دوامة السواد، ويوقفني على حقيقة أنني لا زلت حية بنصف حياة ونصف جسد. إنه جون، يخبرني بورود اتصال هام من والدي. أفتح الباب شبه الموارب:

- أخبره أن يتصل على رقمي الجديد.

- يفضل أن تجيبي عليه من هاتفي.

ابتسم بتوتر عندما ناولني هاتفه، وأومأت موافقة.

- هل سأبقى هنا طويلًا؟!

تنحنحت قبل أن أتنحى من أمام الباب بحركة رجلي الملتوية:

- تفضل، لا زالت غرفتك كما تعلم.

- وإن لم تكن غرفتي؛ هل ستتركيني أمام الباب حتى تنهين مكالمتك التي قد تطول؟!

- لن تطول لأنني سأطلب منه أن يتصل برقمي.

ابتسم وهو يجلس على الأريكة ويتأملني بطريقة غريبة:

- تخافين من الموت؟

تفاجأت من السؤال وتذكرت ما حدث بالأمس:

- لماذا؟

- كنتِ تصرخين: "لا أريد أن أموت".

ابتسمت:

- هل كنت أقول هذا؟! عجيب!

- وما العجيب؟!

- العجيب أن أهرب من الموت لا أن أتمناه.

- ولماذا تتمنينه؟!

- هل أنا في جلسة مع طبيب نفسي؟!

- مجرد فضفضة، ألا تحبين ذلك؟

- الفضفضة تكون مع أشخاص لدينا ما نشاركهم.

- وتمني الموت هو ما نتشاركه الآن.

بهتُ، بينما ابتسم وهو يقلب في كتب مكتبته، قرب مني ظرفًا أصفر مليئًا بالأوراق، قلّبتُ أوراقه التي كانت تشبه أوراق تقاريري، تعلوها الرسوم والمنحنيات، خربشات الأطباء غير المفهومة والمتكررة: حبة في الصباح وأخرى في الليل، العملية الساعة العاشرة، كلام وكلام... صرخت:

- ما كل هذا؟

- سرطان في البنكرياس.

رفعت بصري حتى وقع في بصره، لم يطرف، ولم يزحزحه عني:

- وهو في مراحل متقدمة.

لملمت الأوراق وكأني ألملم جثة، أعدتها في ملفها الأصفر الباهت وكأني أضعها في الكفن، أين سأدفنها إلى الأبد؟! كيف سأمحي كل هذا الألم من جسد جون؟!

- منذ متى؟!

- أكثر من ثلاث سنوات... صرت متعايشًا معه.

ورمقني بنظرة تقول: "وستصبحين أنتِ كذلك"

- لكنك تتمنى الموت.

أرخى كتفيه، رأيت شحوب عينيه قبل أن يتكلم بألق غريب:

- عندما تتمنى الموت فأنت لا تخافه، وعند ذاك يمكنك معايشة

المرض... كل الأشـياء والأفكار متواجدة ومتدافعة وأنت وحدك من تملك تسييرها إلى الوجه الذي تريد.

- وما هو الوجه الذي تريده؟!

- أن أعيش حياة هانئة وأنا مريض.

رن الهاتف، كان أبي، حدثني طويلًا عن حاله وحال البلاد التي كانت قد أعلنت تحررها من غزو المتمردين قبل شهرين: "لم تكتمل فرحتنا بالنصر عندما وجدنا عدن أخرى لا تشبه تلك التي كانت؛ الدمار غيّر معالم المدينة، النازحون يعانون من كثرة التنقل بين المخيمات العديدة وقلة المساعدات وتردي الخدمات، فيما قصة الألغام فاجعة أخرى تنتظر العائدين إلى ديارهم، تترصدهم في الشوارع وتحت العربات وترقبهم من بين الحشائش والأشجار، قاتل غادر لا تراه إلا عندما ينفجر في وجهك ويأخذ معه جزءًا من جسد أو روحًا وفلذة كبد... قبل أيام سمعنا دوي انفجار هز المكان، ظننا أن الحرب قد عاد لهيبها، فخرجنا نعدو بالبنادق ونمتطي المدرعات، رأينا سيارة في وسط الشارع مقلوبة، قد تداخلت أجزاؤها المحترقة مع أجساد ركابها الأربعة؛ انفجر لغم أرضي فيها، قتل السائق وأحد الركاب، وبترت ساق الآخر وتشوهت ملامحه إلى الأبد، فيما الرابع فارق الحياة بعد يومين في المستشفى.

توقف واسترجع ثم عاود الكلام وكأنه مراسل في نشرة على الهواء، يصف ويحلل ثم يرتجف ويبكي. كان يتحدث أحيانًا بالإنجليزية التي يتقنها، لا

يفتأ عائدًا إلى العامية بكلمات يبدو أنها خرجت من لوح التاريخ:

- وين جون؟!

لا زال جون يجلس على الأريكة ويقلب أوراق ملفه الأصفر وكأنه يعد أيام حياته الباقية:

- تريده؟ إنه هنا.

رفع رأسه، نظر إليّ كتلميذ ينتظر نتيجة اختباره، فتح فاهه ثم أغلقه، وعاد إلى ملفه الأصفر، وعدت إلى أبي الذي جاء صوته هامسًا:

- ما رأيك فيه؟

- .....

- أخبرك بكل شيء عنه، وأخبرني أنه يريدكِ.

- .....

- هاه ما رأيك؟!

عاد أبي إذًا ليهندس حياتي، قدرة بريطانية مرعبة على رسم الخطط البديلة، وإيجاد التوافق بين الأطراف المختلفة والمتصارعة، سياسة التنازلات وتبادل المصالح تسود وتسيطر.

- وعماد؟!

لا أدري لِمَ قلت هذا، وكيف قلته، لم أَكِنّ له أي حب، كان غريبًا عني، لا علائق بيننا ولا خيوط متصلة، لا أتذكر منه إلا ذلك اليوم، اليوم الذي اختزل كل حياتي فيه، تضخم وترهل ثم انفجر فأصبح له في كل يوم ذكرى،

تحسست خاتم خطبته اللامع وقلت:

- لم نتأكد من موته.

وهزتني ارتعاشة ما رأيته بالأمس.

- وإن كان حيًّا؛ فمن يضمن متى سنجده، وفي أي حال؟

- ليس بأسوأ من حالي.

- إلى حين ظهوره يكون لنا حديث... والآن ما رأيك في جون؟!

- جون!

رفع بصره نحوي، لاحظ وجومي، فانسحب إلى الخارج، وبقيت أتأمل طيفه لأول مرة؛ شاب طويل ضخم، له أنف مدبب، وعينان صغيرتان بخضرة داكنة، وفم جميل، أبيض البشرة، وأصهب الشعر، هادئ الملامح تظللها مسحة حزن وقور، قليل الكلام، وإن تكلم فكأنما يزن كلماته بميزان يخفيه بين طيات مريوله الأزرق، عندما يبتسم تظهر غمازتان في وجنتيه تجعله يبدو طفلًا بريئًا.

- هو مسلم، ولديه منزل منفصل له حديقة، ويملك سيارته الخاصة.

- لكنه مريض بسرطان البنكرياس وهو في مراحل متقدمة. لماذا يريد أن يتزوج؟!

- الأعمار بيد الله يا ابنتي... ثم هو يحب أن ينجب طفلًا قبل أن يغادر الحياة، ليزا تريد أن ترى حفيدها، وأنا أريد أن أراكِ زوجة،

وجون هو خير من وجدت لكِ... ثم انظري لحالك يا ابنتي.

ناولت جون الهاتف عندما وجدته في الطابق الأول، كان متوترًا، ينتظر ردي الذي لم يأتِ مني، بل أتاه من أبي، فرأيت البِشـر يطفر من وجهه، وكأنه أضيء بشمس عدنية بعد أن كان غائمًا كـ "لندن".

عندما أتى في المساء لأخذي، كما في كل مرة، إلى جلسة الطبيب أحضر لي زهرة حمراء، تأملتها قبل أن أخبره أني لا أحب اللون الأحمر، وأن أزهاري المفضلة هي أزهار الهندباء البيضاء.

- لكنها أزهار بلا جسـم ولا رائحة، تنتشر بتلاتها في الهواء بمجرد نفخة!

- ولذلك هي تعجبني، ليس لها رائحة فهي ليسـت قنينة عطر، وليس لها جسد ثابت فهي ليست للزينة، هي زهرة طيارة لا يملكها إلا من أحبها، ومن يحبها لا بد أن يطير.

كنت أتفلسـف كيفما اتفق، أريد أن أبدو أكثر ثقافة ولو بتلفيق الكلمات الرنانة الجوفاء التي لم أحب يومًا أن ألوكها لكنني الآن أفعل وبكل شراسة، ثم إنني لا أحب هذه الحركات الصبيانية للعشاق المراهقين، ونحن كهلان عجوزان نتمنى الموت.

رأيت ابتسامة غامضة تتلبس وجه جون الذي هز رأسه وصمت. تساءلت بتبرم: "هل يسخر مني؟!"

بعد أن أتممنا الجلسة العلاجية:

- نذهب في نزهة؟

لم أمانع، لأنني كثيرًا ما كنت أخرج معه، فلم يكن لي من أحد سواه، لكن هذه المرة هل سيكون الأمر مختلفًا أم أنه سيكون عملًا آليًا ديناميكيًا لا يمت إلى القلب بصلة.

كنت في كل مرة أمضي خلفه مطأطئة الرأس، أتبع خطو قدميه ولا أرى وجهه، اليوم لم يتقدمني، بقي إلى جواري، ألتفت فأرى وجهه المقبل عليَ ببشاشة، تحاول خطواته الواسعة أن تحاكي رسم خطواتي الصغيرة المُترِدِدَة. عندما جلسنا إلى طاولة منزوية في المطعم طلب وتفنن في طلبه، لم ينتظر أن أطلب كوب شاي، أو فنجان قهوة كما في كل مرة:

- أعلم أنك ستطلبين المعتاد، وأنا اليوم لا أريد أن يكون مُعتادًا.

تحرّك قلبي حين رأيتُ عينيه البائستين تلمعان بشدّةٍ أخافتني وألهمتني.

- وأنتِ؟

وقبل أن أجيب عن سؤاله الهلامي قفز على طاولتنا رجلان غريبان، الأول طويل نحيف كالقصبة، والثاني قصير مدور كالكرة، عانقا جون المتردد الذي بادر بكلمات مضطربة بتعريفهم بي:

- خطيبتي.

- وواوو! عربية؟

- نعم.

مد الطويل يده مصافحًا:

- هي لا تصافح الرجال.

لمحت نظرة مرتبكة من جون تتلصص على يدي اللتين بقيتا ساكنتين تحت الطاولة.

حنى الطويل رأسه وهمهم بتفهم:

- أوكيه، "أيام سوري..."

ثم بقي الثلاثة يرطنون بينهم بالعامية البريطانية، ويصفعون أيديهم ضاحكين، وكلما حاول الطويل أو المدور إشراكي في الحديث يتدخل جون بطريقة مريبة لتركي في عزلتي التي انتهت بذهاب الغريبين، وجلوسهما إلى طاولة لا تبعد عنا.

- صديقان قديمان.

كان يتولى السؤال والإجابة اليوم، هل هذه بداية السيطرة البريطانية عليّ أم...؟

- أحب أن تكوني على طبيعتك معي، ولا أريد أن تكون بيننا أي حواجز.

- وما تلك الحواجز؟

تردد ثم قال:

- لا تتحدثي معي بهذه الإنجليزية، تحدثي معي بالعربية فأنا أفهمكِ.

ماذا يقصد هذا الإنجليزي البارد؟! هل إنجليزيتي فظيعة لدرجة أنه لا يحب

سماعها ولا يحب أن يسمعني أصدقاؤه! ثم منذ متى وهو يعرف العربية؟! لا ينطق إلا بكلمات تشبه ثغاء الأغنام.

- أحب حروفك العربية، نطقك لها يجعلني أثمل!

ثم ابتسم وكأنه يهنئ نفسه على تلك الترقيعة الرخيصة لفجاجة كلامه السابق.

نفخت بحنق واضح:

- مجنون!

هز رأسه وقال بلطف لم آلفه منه:

- مجنون بكِ!

في هذه الأثناء جاءت النادلة، ووضعت الأطباق على الطاولة، ثم انصرفت. لا أدري ما الذي حدث لجون عندما وضعت يدي على سطح الطاولة، لا أدري لِم اندفعت يداه وأمسكت بكفي، لا إمساك حب، بل إمساك قلق وتوتر، وكأنه يحاول أن يخبئ تلك القذارة عن أعين الناس.

دفعت كرسيي إلى الوراء وانتصبت واقفة وأنا أقلب كفي أمام بصري:

- لا يمكنك أن تفعل هذا، تعلم أن ديني لا يسمح به.

كان وجه جون يتلون وهو يردد بصره بين يدي المحترقة وعيون المحيطين بنا في باقي الطاولات.

نظرت حولي فرأيت العيون المتقززة والمشفقة تنظر إليّ، ثم تهبط على يدي البشعة وتولي هاربة.

أخفيت كفي في كمي، ثم انكمشت في الكرسي، قبل أن أندفع إلى الخارج، أجرجر خيبتي، وأعيش صدمة ما يريده جون مني؛ لا يريد أن أتحدث، ولا يريد أن أرى أحدًا، يريد كائنًا شفافًا يعاشره في الظلام لينجب طفله المنتظر. أهذا ما اتفق عليه مع أبي؟! أروني هذا الاتفاق المُهين لأمزقه، وتطحن أضراسي رأس من فكر به! إنه اتفاق على جعلي آلة للتكاثر والحفاظ على النسل، لا زوجة لها ما للزوجة من حقوق... ألأنني أتمنى الموت تجرأ ليفرض عليّ زواجه المذل، نخرت وكزرت على شفتي ثم رددت بثورية من خرج إلى الميادين الملتهبة وهو يحمل روحه فوق كتفه: "الموت ولا المذلة!"

تسلقت الدرجات حتى وصلت إلى غرفتي أو غرفته، أغلقت الباب خلفي، وانهرت باكية. كان بكاء جافًا لا دموع ترقق حواشيه المحرشفة، تجتاحني الزفرات المؤلمة، وتقض مضجعي تلك الإهانة التي تلقيتها كطعنة نجلاء ينزف منها كبريائي.

هناك في صدري كان ثمة بركان خامد انفجر دفعة واحدة عندما سمعت صوت جون المتودد من خلف الباب يطلب الدخول، هجمت على كتبه المرصوفة، قذفتُ بها الباب وأنا أزمجر:

- من تظن نفسك أيها الثور الهجين المُتسرطن؟!

أطلقت السباب والشتائم، حطمت مزهريته الوحيدة، أطل برأسه الضخم من خص الباب، كنت مندهشة أن يقترب هدفي لهذه الدرجة، رأيت بين

عينيه حكاية أكثر من مائة عام من الاستعمار؛ السفينة دريا دولت تجنح في مياه الخليج، عيني الكابتن هنس الجاحظة وهو ينسج بمكر خطة الاستيلاء على عدن، استماتة القبائل في الدفاع، قصفهم من البحر بالمدافع، سقوط المدينة، المقاومة والمقاومة والمقاومة... رميته بكل ما وجدته أمامي، لم يبقَ إلا فردة حذائي التي صوبتها على أنفه المدببة، وأنا أصرخ في ثورة: "برع!" وتذكرت أمي في كل عيد أكتوبري، كنت الوحيدة في الصف التي تنتمي لمحافظة جنوبية، ألزمتني أمي الثورية بالوفاء لثورتها المجيدة، كنت أستيقظ فجرًا وفي أهدابي يتثاءب النعاس مرددة الكلمات العاصفة، تلبسني الزي الأخضر وتنظر في عيني وتقول: "قولي ورائي: برع..."، تدير العلم على وسطي، وتُرقِص أخي على "أنا الشعب زلزلة عاتية... أنا الشعب! ستخمد نيرانهم قبضتي... أنا الشعب!"، تدفعني لاعتلاء منصة الحفل في المدرسة، تبتسم لي من بين التلاميذ فهي الأم الوحيدة التي تحضر هذا الحفل الهامشي، تردد وأردد خلفها صارخة: "برع يا استعمار..." وأشعر عندها أن كل اليمن تصرخ خلفي: "برع!"

"من أرض الأحرار... برع! وإلا الليلة يكويك التيار... برع!"

❊ ❊ ❊

٢٠

وعدت إلى "أرض الأحرار" بعد أن تحررتْ وانتهت مسرحية التوافق المزعوم بيني وبين جون، عدت بعرجي وتشوهي، أحمل إرثًا من الحزن وكثيرًا من التجربة.

على سلالم المطار كنت أرفع رأسي إلى السماء الحارة المشمسة التي لم أرَ مثلها منذ ستة أشهر. استقلبتني الخالة مع أخي" فؤاد" والذي يبلغ من العمر ١٧ سنة. كان يبدو رجلًا وهو يلبس المعوز، ويضع على رأسه كشيدة يظهر من تحتها شعره الجعد المفلفل، يتمنطق بالبندقية التي تبدو أطول منه.

علقت الخالة ضاحكة وهي ترى استغرابي:

- موضة هذه الأيام!

استأجر أبي شقة مع السطح في كريتر؛ فمنزل جدي في التواهي تهدمت أجزاء منه؛ فبعد أن نزحنا منه استوطنه القناصة، ثم قُصِف من طيران التحالف، ولم يرمم حتى الآن.

قالت خالتي مواسية:

- الشقة جميلة، إن شاء الله تعجبك.

لم أكن أبحث عن الرفاهية هنا، بل كنت أبحث عن ذاتي التي أراها في عدن، عدن التي لم تعد كما كانت.

لا جديد في حياتي التي اتسمت بالنوم الطويل والسهر الطويل والكآبة المتجددة، أطوف في الأسواق على غير هدى، أتأمل المدينة كيف كانت وكيف أصبحت؛ حزن خانق أراه في عيون الفقراء والنازحين الذين يلتحفون خيام مراكز الإيواء ويفترشون الأرض القفر في انتظار إحسان المحسنين، وفرح طائش، و"ثراء حرب" فاحش، تظهر خيلاؤه البشعة في الأعراس الباذخة، والسيارات الفارهة، والأشكال الغريبة المستهجنة.

أعود مع الغروب بجسد يوشك على السقوط من التعب، وألم القلب لا يحمله أحد، تقتلني الأيام الحارة، فالتعرق يغلي منه جلدي المحترق، أتكور تحت المكيف كحلزون حزين، وأمضي أوقات انقطاع الكهرباء في التنقل من أمام النافذة إلى جوار الباب إلى السطح.

لا أحلام في ذلك النوم المتذبذب، مجرد صور مقصوصة من كابوس مر من هنا؛ الحرب: أعمدة الدخان، أصوات الطائرات، الأشلاء المتطايرة، وبقايا الأجساد.

لم أطق المكث في الشقة نهارًا، ولا حضور الاجتماعات النسائية مساء والتي تتخذ من بيت الخالة مقرًا لها. كنت أهرب إلى الشارع، أعكف في مسجد أبان ساعات العصر الذهبية، لأقرأ القرآن، وأتأمل في تأملات جدي، ثم أغذ السير إلى البحر، حيث أجد هناك سكونًا أستكين له. لا أحب إلا ذلك الصوت المهيب لتهشم الأمواج العاتية على صخور الشاطئ، أتذكر قول الشاعر وأنا أقف على صخرة تحيطها الأمواج: "ثاوٍ على صخر أصم وليت

لي... قلب كهذه الصخرة الصماء".

أبكي مع الغروب على لا شـيء، ومن كل شـيء، ثم أعود إلى المنزل في الظلام، تستقبلني النظرات المتسائلة، لا أحد يجرؤ على سؤالي أين كنتِ؟! فلم أعد كائنًا يُحسـن محاسـبته، أنا كائن قد بلغ من الشـقاء ما لم يملك معه بنو البشر الهانئون إدراك مقامه، أنا فوق القانون، وفوق المساءلة!

وحده ذلك الصبي، المفلفل الشعر، يسألني باحتجاج واضح أين أذهب؟! ذلك الصرصور الصغير لم يجد من يردعه عن فعل شيء في هذا البيت، هو يفعل ما يشـاء في "الحافة" مع رفاقه صـعاليك الحواري والأزقة، يحملون أسلحة لا يعرفون قيمتها إلا في اللهو والتهديد وإظهار الفرح، لا يعلمون أنها في أيادٍ أخرى حررت بلدًا وحمت عرضًا وصنعت نصرًا.

يريد هذا البرغوث أن يفرد عضلاته الطرية علي، ويريني كيف تكون التربية، ولا يعلم أني احترقت بالتجربة، ومللت الحياة التي يتلاعب بها هو وأصدقاؤه.

قفز أمامي، زعق وتهجم، رأيت خالتي تختبئ خلف الجدار في عجز وقد اغرورقت عيناها بالدموع، أبي لم يكن موجودًا، لم أبقَ إلا أنا للقيام بعملية الجراحة والتطهير لهذا الوباء المستفحل.

على الرغم من عرجي وتشـوهي فقد كنت فارعة الطول بالنسـبة لقزمنا الصـغير، أعطاني الله نسـبة من طول أبي، وجزءً من شـكيمة أمي، فكنت صنديدة تُلاعب دودة، أحمل سوطًا معي، أخبئه بين ملابسي كلما خرجت،

هكذا كانت أمي تحرص على سلامتي أنا وأخواتي، كل لها طريقتها في التسلح، السكاكين أو الخناجر أو القنابل الدخانية، وكنت أهوى السوط، إنه مؤلم وحارق جارح سريع، له صوت مدهش ملهب، لم أستخدمه من قبل، واليوم أضرب به أخي الذي أعماه طيشه، طوّحت به مع أول ضربة على عاتقه فسقط وهو يتأوه ويلعن، ثم أسكته بضربة أخرى على قدميه، انكمش يداري بكاءه الذي طفرت دموعه على خديه. شعرت بلذة غريبة تسيطر عليّ وأنا أراه مكومًا يتألم، أنكرت نفسي التي بدأت تتلذذ بضربات السوط التي لوحت بها بقية جسده المنتفض، ولولا انكباب الخالة عليّ مدافعة عن ابنها لأشبعته ضربًا أشفي به نفسي المتعطشة للصراخ والألم.

اندفعت إلى المطبخ فرأيت تلك العيون الصغيرة المتلصصة تتأمل ظلي بهلع، فرقعت بالسوط أمامها فتلاشت خلف الأبواب المرتعدة، كنت أمضي كالغول الهائج، لا يراني أحد إلا اختبأ أو أغلق باب غرفته، اختنقت بتلك النظرات وبنفسي التي أنكرتها فصعدت إلى السطح مع ملاءتي علني أحمي نفسي وأحميهم منها، أنظر إلى القمر البدر الذي يتوج سماء شفيفة طالما أحببت صفاءها، واليوم أحب حزنها الوقور الهادئ، حزن ممتد يكتب حياتي من البدء حتى النهاية.

أسمع الخالة تشكوني له، وابنه ينوح نواح الثكلى أمامه، يلعنني بقية إخوانه، ويصفونني بكل نقيصة: "المحروقة، العرجاء، العجوزة، الغولة..."، تبكي خالتي عندها وتخيره بيني وبينها.

رأيته في ضـوء القمر، لم أجلس معه منذ عدت من بريطانيا، كان ما بيننا كلام عابر، عتاب بارد مني، واعتذار بارد منه، لم يشـاركني في شـيء آخر سـوى ذلك البرود، هل أتى ليعاتبني على ما فعلته بصغيره المدلل؟ هل جاء ليطلب مني مغادرة بيته؟ لا أظنه يفعلها وإلا لعُد نذلًا، وأبي لم يكن كذلك.

جلس مواجهًا لي، رأيت قسـماته التي شـاخت بعد الحرب، وتذكرت أنه يشاركني في الحزن أيضًا؛ ألم يفقد زوجته وابنه وابن أخيه واحترقت ابنته؟ تململ وهو يشبك أصابع يديه، كان الأسى يُغلّف صوته الذي جاء منخفضًا على غير عادته:

– جدتك نعمى لن تعود إلى عدن.

– أعرف.

أمال رأسه باستغراب:

– وقررت بيع بيت جدك في التواهي.

ابتسمت؛ فقد كان أوسا دائم الاتصال بي:

– أعرف هذا أيضًا.

ضحك حتى عادت رأسه إلى الوراء فضحكتُ لضحكه:

– وماذا تعرفين أيضًا؟!

– دعتني للمجيء إلى إثيوبيا للعيش معها في بيت العمة لينا.

– وما هو ردكِ؟

نظرت في عينيه، كان هناك رجاء غريب ألّا أوافق:

- أنت ما رأيك؟

أعاد فرد يديه، ثم قبض أصابعه، وتنهد قبل أن يقول:

- رأيي هو رأيك... لم تعودي صغيرة لأقرر عنكِ.

نكثتُ برأسي مفكرة، لم يعد لبقائي هنا معنى، كأنني كتلة من الألم المتحرك، قنبلة موقوتة تنفجر في كل من يقترب منها، ربما أجد هناك شيئًا يملأ فراغي، ربما أجد دارًا تلملم شعثي بدلًا عن هذه الدار المتشظية التي تأكلها نيران الانقسامات والتفلت، وهناك أوسا لا زال ينتظرني على أحر من الجمر بعد أن باءت مخططات الجدة بالفشل معه. ربما أعيد هناك قصة الأوسانيين الذين استوطنوا تلك الدّيار، ربما أنشئ مملكة جديدة تدعى مملكة الملكة المحترقة، ربما... قاطع تفكيري بقوله وهو يبتسم بانتصار واضح:

- قبل أن تقولي رأيكِ، لدي خبر آخر لا أظنك تعرفينه.

- ما هو؟

- غدًا صباحًا تعرفين.

وفي الصباح كنت أقف معه أمام مستشفى الجمهوري، نراقب الباب الذي غاب فيه شخص لا أعرفه، عاد ومن خلفه طبيب شاب وممرضة، أوصلونا لرئيس الأطباء، رجل قد خط الشيب رأسه ولعبت السنون في أفياء وجهه المغبر. تحدث مع أبي وهو يمضي معنا:

- أخذه المتمردون معهم من المنطقة الغربية، وعاد مع الأسرى الذين أطلقوا سراحهم البارحة.

- ماذا حدث معه هناك؟

- خضع لعملية في الرأس لإخراج الرصاصة التي اخترقت جمجمته، دخل بعدها في غيبوبة طويلة، استيقظ منها قبل شهر ولا زال يهذي منذ ذلك اليوم.

- هل هو بخير؟!

- ستراه الآن.

دلفنا إلى غرفة تزدحم فيها الأسرة كما النزلاء، مرت عيناي على الرؤوس المتكومة فوق الأجساد المُنّهدة، عيونهم حيرى تذهب وتعود في الداخلين من تلك الكوة التي تصلهم بالدُّنيا، ورأيته بينهم لا يتطلع لأحد، عيناه داكنتان تنقشان في أصابعه معانٍ لا يفقهها أحد سواه.

هتف أبي بفرح حقيقي وهو يراه حيًّا يرزق:

- عماد!

اندفع إليه كالملهوف الذي وجد الماء في صحراء قاحلة، يتحسس جسده، يرمي على وجهه النظرات المتسائلة، ثم ينكب عليه معانقًا.

بقي ينظر حوله بشرود، ويتمتم بحيرة وكأن المخاوف والأحلام والخيالات ينسجها في هذرمته الهاذية.

- ما الذي تقوله يا عماد! أتعرف ما الذي حدث؟

نظر إلى أبي، تأمل وجهه وكأنه يتذكر، عاودته التمتمات التي لا تنتهي.

هزه أبي من كتفيه وقد تهجد صوته:

– أفق يا بني! كنا ننتظرك منذ ستة أشهر، إن كان ما حدث معك عسير الفهم والتصديق، فلا تجعله عسير الشفاء، أنت في صحتك الكاملة، لم يمسك من تلك النار التي تتردد في حديثك الموتور إلا كفًا محترقة ووجهًا فيه خدوش بسيطة، فلا تحمل نفسك ما لا تطيقه، وما لا نطيقه.

وقفت خارج الغرفة أرقب ما يجري بحيرة، رأيت عينيه الحزينين وتوقفت على وجه أبي من جديد، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة يائسة قبل أن يتحدث لأول مرة بكلام مفهوم وقد ارتعشت يده:

– لكنها احترقت.

– مَن؟

– التي ائتمنتني عليها، وجعلتني حاميًا لها.

سرت إليه أتكئ على الجدار، أتذكر ذلك اليوم الرهيب؛ عيناه في المرآة، "تشبثي بالكرسي"، المكان يشتعل، وزخات الرصاص تنهمر كما دموعي الآن. كان الطريق إليه ينوء بكل تلك الأحداث، يفضح شعورًا عميقًا بالحب لم أدركه إلّا الساعة، تتدافعني المشاعر ويزداد الدخان كثافة، والخيال يرزأ تحت ألوان من الامتنان الملوح بالدمع.

لم أحس إلا بيدي المحترقة تلامس يده؛ سوداء متفحمة تعانق أختها في اللون والألم.

ندت منه تنهيدة استغراب، ومر في سواد عينيه قمر ونجم.

قلت بكل المشاعر التي ضج بها قلبي:

- لكنها نجتْ، كما نجوتَ.

رفع إليّ عينين لامعتين ومن فمه شعّت ابتسامةٌ حوتني إلى الأبد.

❊ ❊ ❊

ثرثرة في زمن الحرب

في اللحظة التي ينقسم فيها الوطن إلى خرائط متنازعة، يجد الإنسان البسيط نفسه مضطرًا إلى إعادة تعريف بيته، وعائلته، وحتى هويته. في "ثرثرة في زمن الحرب" تكتب عايدة قاسم سيرة جيلٍ وجد نفسه عالقًا بين وطنٍ يتشظى، وأسرةٍ تتنازعها الولاءات والتواريخ، وبين حبٍّ يحاول أن ينجو من ركام السياسة. في الرحلة من صنعاء إلى عدن إلى بريطانيا تتقاطع الحكايات؛ أبٌ يحن إلى زمن السلاطين والاستعمار البريطاني، وأمٌّ تؤمن بإرث الثورة، وجدّة إثيوبية تدير شؤون العائلة بطريقتها الخاصة، وثلاثة عشاق، لكل منهم وجهٌ مختلف للحب. وبين هذه الأصوات المتباينة تنسج الرواية صورة لوطنٍ لم يعد يتسع لأبنائه إلا بقدر ما يحتمل اختلافاتهم. هذه رواية عن النزوح والانتظار، والخسارة والعودة، وعن الإنسان الذي لا ينتمي إلى حزب أو راية، ويظل يبحث عن اسمه الأول: اليمن.

عايدة قاسم خليل: حاصلة على بكالوريوس في التربية الإسلامية وعلوم اللغة العربية. بدأتْ ممارسة الكتابة في عام ٢٠١٧م. روايتها "ثرثرة في زمن الحرب" من الروايات الفائزة بجائزة السرد اليمني- حَزَاوي في دورتها الرابعة 2025.

YKB
بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني